الشباب والقراءة

نشر المقال بجريدة الأهرام – صفحة قضايا وآراء بتاريخ ٣١ يوليو ٢٠٠١م صـ١٢ الاشتغال بقضايا الشباب يأتى من منطلق أن الشباب هم عدة الأمة وأمل المستقبل.

والقراءة من أهم قضايا الشباب، لأنها تخلق الشخصية القوية ذات البصر الثاقب والفكر المستنير. وتوجد الآن صحوة هائلة فى اتجاه الشباب إلى القراءة، وشغل أوقات فراغهم فيما يعود بالخير عليهم وعلى مجامعهم.

كان الشباب – فى أحسن أحواله ولايزالون – يجدون متعة فى مشاهدة المسلسلات، أو المباريات، أو ممارسة الألعاب الرياضية على اختلاف أنواعها، وهذا شئ يحمد له، ولا ينكر عليهم، ولكنهم ينسون أو يتناسون جانبا مهما فى حياتهم وهو القراءة التى إذا تعوّد عليها الإنسان وجد فيها متعة لاتُعد لها متعة، وأحس فيها سعادة لاتُدانيها سعادة، ذلك أنه بالقراءة يعيش حياة مختلفة الأشكال والألوان، يكون فيها كالطائر الذى ينتقل من غصن إلى غصن، وكالنحل الذى يمتص رحيق الأزهار ثم يفرزه عسلا شهى المذاق، لذيذ الطعم.

بالقراءة يتعرف الإنسان على عوالم تموج بالمعارف المتنوعة، وتزخر بالأفكار المختلفة وفى ذلك من غذاء الروح والعقل ما فى ممارسة الرياضة من غذاء الجسم والبدن، وباجتماعهما تتكامل عمليات النمو فى الإنسان الذى تكون مهمته الأساسية تحقيق التوازن بين متطلبات الجسم والروح.

واتجاه الشباب إلى الألعاب الرياضية والتدريبات البدنية ينبغى ألا يكون على حساب اتجاههم إلى القراءة، لأن القراءة ليست على طرف نقيض من الرياضة، بل هما شيئان متكاملان لا متناقضان، ولذلك يقولون: العقل السليم فى الجسم السليم، وما قيمة الجسم السليم بدون العقل السليم ؟

ولعل بعض الشباب يتساءلون: كيف تكون القراءة المفيدة النافعة؟ وماذا يقرأ الشباب ؟ هل يقرأ مايفيده ؟ أو يستفيد مما يقرأ ؟

هذان منهجان للقراءة يختلف التوجه إليهما باختلاف درجة النضج والاكتمال عند الشباب، فالذى نضج عقله، ونما فكره يستطيع أن يقرأ كل شئ ويستفيد مما يقرأ، فلا خوف عليه، لأن عقله الناضج يكون كالمعدة السليمة التى تستطيع أن تهضم كل ماتتناوله من الأطعمة، أما من يكون فى أولى درجات النضج فيحسن أن يختار له مايقرأه، كما يختار للمعدة المريضة ماينا سبها من الطعام، ولو ترك وشأنه لضل سواء السبيل.

والقراءة المفيدة بالنسبة للشباب الناضج يجب أن يُراعى فيها الجمع بين القراءة والفهم والحفظ والربط والأداء، بمعنى أن يفهم الشاب مايقرأ، ويحفظ بعض الفقرات المتميزة، ويحاول الربط بين الأفكار والعبارات وأخيرا يُدرّب نفسه على الأداء فيلخص بعض

مايقرأ، أو يكتب تعليقا على بعض الأفكار والعبارات، وإذا قرأ صحيفة فلا يكتفى بقراءة الصفحة الرياضية، وإنما يضيف إلى ذلك قراءة بعض المقالات أو الموضوعات السياسية أو الثقافية أو الأدبية، ويحافظ على قراءة الأعمدة، أو الأبواب الثابتة التى يمكن من خلالها أن يتذوق جملة من الأساليب المتنوعة لكبار الكتاب، وحبذا لو استطاع أن يلخص مايروقه منها ليصنع لنفسه مذكرات يحتفظ بها، ويرجع إليها وقت الحاجة.

ومن الجدير بالذكر أن تعدد القراءة للنص الواحد يكشف عن آفاقه وأبعاده، لأن النص – خصوصا النص الشعرى– لايتضمن معنى نهائيا يأخذ شكل بعد واحد، بل إن له أبعادا متعددة، لأن لغته تعتمد على شفافية حدسية، وعلى لمعان خاطف يتموّج خلف الكلمات ليُضئ عالمها المغلق، وعلى قارئ النص الشعرى أن يتبنى فكرة الاحتمالات بوساطة حدقته الفنية التى تتغور داخل الأبعاد لتستكشف أسرارها.

ومن هنا يتضح أهمية تعدد القراءة للعمل الأدبى الواحد، لأن القراءة السابقة تصبح أفقا لما قبل الفهم بالنسبة للقراءة اللاحقة، ويعنى هذا أن النص يتجدد مع كل قراءة، لأن لكل قراءة أثر يختلف عن أثر القراءة الأخرى، وفى كل إعادة للقراءة يحدث أثر آخر، فكأننا مع نص آخر.

ضعف اللغة العربية : مظاهره وأسبابه

من مظاهر ضعف اللغة العربية إذدراؤها والتهوين من شأنها، ومن أمثلة ذلك أن المركز الثقافى القومي بدار الأوبرا المصرية أقام حفلا لفرقة باليه أوبرا القاهرة، وكانت تذاكر الحفل مكتوبة باللغة

الإنجليزية فقط، علما بأنه لم يحضر الحفل أجانب، أو ربما عدد قليل منهم، حتى لو كان من بين الحاضرين أجانب، فلماذا لم تكتب التذاكر باللغتين العربية والإنجليزية؟ وهذا أضعف الإيمان.

ومن مظاهر الضعف أيضا كثرة الأخطاء فى الإملاء والنحو والصرف فى كل الصفحات والبرامج الإذاعية والتليفزيونية، ورغم هذه الأخطاء فإن أحدا لا يلتفت إلى تصويبها، فنحن نعتاد الخطأ حتى يصبح قاعدة، وقد تم حصر ٢٠٠ خطأ إملائى فى الصفحة الأولى لإحدى الصحف، ونفس العدد – تقريبا – يتكرر فى باقى الصفحات (حوالى ٢٠٠٠ خطأ فى الجريدة كلها)، مما يعكس مدى الفوضى فى استخدام اللغة العربية، كأنه لاتوجد لدينا قواعد فى كتابة الهمزات والتاء المربوطة، وبهذه المناسبة قد زرتُ فى إحدى جولاتى التوجيهية مدرسا فى مدرسة ابتدائية ووجدت عنوان الدرس (همزة الوصل والقطع)، وقد كتب المدرس العنوان على السبورة مع وجود همزة على ألف (الوصل والقطع)، والمفروض أنها همزة وصل لاتكتب.

إن اللغة قد انهارت وانحطت على ألسنة الشباب، وفى الميكروفون وعلى الشاشات المصرية نجد الشباب لايحسنون النطق باللغة العربية ويأكلون الحروف فتهرول منها المعانى، ثم يضيفون إلى لغتهم عبارات عربية من صنعهم لأنهم لايعرفون المرادف العربى لها، ثم إنهم لايعرفون مبادئ النحو والصرف، لا الصغار ولا الكبار أيضا، وفى بلادنا تظهر الأخطاء النحوية والإملائية على الشاشة، وفى الإعلانات، وفى العناوين التى تسبق المسلسلات، وفى اللافتات فى الشوارع وعلى الكبارى.

يوم ١٧ ديسمبر ٢٠١٣م أقيم فى القاهرة مؤتمرا حول مشكلات اللغة العربية وقضايا المستقبل شارك فيه عدد كبير من أساتذة اللغة العربية، ولم يحضره أحد، مما يؤكد أن لغة (الضاد) فى محنة حقيقية ابتداء بما يجرى فى المدارس وانتهاءً بوسائل الإعلام.

على الجانب الآخر نشرت صحيفة (معاريف الإسرائيلية) أن خمسة آلاف شاب مصرى يدرسون كورسات باللغة العربية حول (النانو تكنولوجى) عبر الانترنت فى معهد الهندسة التطبيقية فى إسرائيل، وأن هناك آلاف الطلاب العرب الذين التحقوا بهذا المعهد الذى يقدم كورساته باللغة العربية والإنجليزية، ومنذ سنوات قررت وزارة التربية والتعليم فى إسرائيل أن يكون تعليم اللغة العربية إجباريا فى جميع المدارس إبتداءً من الصف الخامس، وخصصت لذلك ألف مدرس لغة عربية من اليهود، ولم تتردد حكومة الاحتلال الإسرائيلى فى أن يدرس طلاب إسرائيل قصائد شاعر المقاومة محمود درويش، وأن تدخل فى مناهج التعليم.

هذا يحدث فى إسرائيل بينما نتابع الحالة المزرية التى وصلت إليها اللغة العربية بين أهلها وسكانها وكيف أقيم مؤتمرا لمناقشة مشكلاتها ولم يحضره أحدا.

إن الخطير فى الأمر أن اللغة العربية مهددة بالفعل أمام الإهمال الشديد وتراجع مستوى التدريس والمناهج، وحالة الضياع فى النظام التعليمى مابين الأمريكى والكندى والإنجليزى والألمانى والفرنسى، فى حين غابت اللغة العربية تماما عن المشهد.

إن القضيـة لاتتعلـق بمصـر وحدهـا، فقـد اختفـت اللغـة العربيـة فـى دول الخليـج أمـام الغـزو الهنـدى الباكسـتانى الإيرانـى الصينـى، وأصبحـت اللغـة الإنجليزيـة هـى اللغـة الأولى.

وفـى مصـر أطفـال مصريـون يتعلمون فى مـدارس أجنبيـة ولا يتكلمون اللغـة العربيـة، وتجـد الأب والأم يتنـدرون للضيـوف بتعـال أن الإبـن لايتحـدث العربيـة، وأنـه يجيـد الإنجليزيـة فقـط، وحـين يتخـرّج فـى الجامعـة يكتشـفون أنـه لايتحـدث شـيئا لا العربيـة ولا غيرهـا.

لقـد أصبحـت لغـة القـرآن غريبـة فـى بلادهـا، ضائعـة بـين أهلهـا، يقـول أ. فـاروق جويـدة (الأربعـاء ١ ينايـر ٢٠١٤م): « ومنـذ أن تنكرنا للأطـلال، وغنينـا (بحبـك ياحمـار) قلنـا علـى العربية السـلام».

وهنـاك مـن الأدبـاء مـن يسـتمتعون ببلاغـة العاميـة وجماليتهـا وإنجازاتهـا فـى شـعر الأبنـودى وغـيره مـن كبـار المُبدعـين مثـل أحمـد فـؤاد نجـم الـذى يتطلـب ابداعـه الشـعرى رؤيـة مسـتقلة – علـى حـد تعبيرهـم – وهـذا و لا شـك مـن مظاهـر ضعـف اللغـة العربيـة إنصـراف أهلهـا إلى العاميـة، وإعجابهـم بهـا لدرجـة العشـق، ويستشـهد لذلـك بمـا قالـه أمـير شـعراء الفصحـى عـن بـيرم التونسـى: إنـه لايخـاف علـى الفصحـى إلا مـن بـيرم، وهـى – كمـا يقولـون – شـهادة لبـيرم وفنـه العـالى الـذى ينافـس العربيـة الفصحـى، وليسـت – كمـا فهـم البعـض – دعـوة إلى القضـاء علـى بـيرم وآثـاره، لأنهـا خطـر علـى الفصحـى، وعبـارة شـوقى عـن بـيرم يمكـن إطلاقهـا علـى الأبنـودى وفـؤاد نجـم وسـيد حجـاب، فشـعراء العاميـة وشـعراء الفصحـى – فـى رأيهـم – يتبادلـون حـوارا أعمـق فـى بنيتـه التحتيـة غـير المنظـورة على مسـتوى الصـورة الشـعرية، ومعجـم اللغـة الحـى والموقـف الشـعرى،

فضلا عن أن ثقافة شعراء العامية جميعا ثقافة فصحى، تقرأ الشعر الفصيح، وتهتم بمتابعته، وتؤسس بنيانها الشعرى على أصوله وركائزه، بل إن البدايات الحقيقة لمعظمهم كانت بدايات فى الشعر الفصيح، مثل بيرم وصلاح جاهين وفؤاد حداد والأبنودى، لكنهم سرعان ماتحولوا إلى الإبداع الشعرى بالعامية، لأنهم وجدوا أنفسهم فيها، وكان من نتائج ذلك التحول ميراثنا الجميل من بلاغة العامية ومكتساباتها جيلا بعد جيل.

وهكذا نجد من الأدباء من يروج للعامية ويعبر عن حبه لها وعشقه لفنها .

ومن مظاهر ضعف اللغة العربية مخاصمتها من جانب شركاتنا ومحالنا التجارية، فهذا التكالب على استخدام المسميات الأجنبية بدلا من العربية، وكأنها (تميمة سحر) تجلب الزبائن، هو جهل بلغتنا العربية التى قال عنها أحد القدماء: » إن للعرب كلاما هو أرق من الهواء، وأعذب من الماء»، وهو فى الوقت نفسه عدم ذكاء تجارى، فمن البديهيات أن التاجر الشاطر يخاطب الزبون باللغة التى يفهمها حتى يجذبه إلى بضاعته، ولكن هؤلاء يفعلون العكس تماما، فالمواطن العادى الذى لايجيد سوى لغته العربية لايرى فى هذه المسميات الأجنبية سوى طلاسم غير مفهومة.

مشهور من كتاب النحو يدرسه طلاب الأزهر فقال: العنوان الأول فى الكتاب هو: (باب الإعراب) وهنا يقول الشارح: قل (باب الإعراب) بالرفع أوبالنصب أو بالجر، فلن تعدو وجه الصواب فى أى حالة، فالرفع على أن (باب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا باب الإعراب، أو مبتدأ والخبر محذوف تقديره: اقرأ

بـاب الإعـراب، والجـر علـى تقديـر حـرف جـر محـذوف تقديـره: انظـر فـى بـاب الإعـراب.

ويعلـق الزيـات علـى ذلـك قائـلا: (جنـى هـذا النحـو الفوضـوى علـى الناشـئين فأفسـد عليهـم وجـوه الأدب، ثـم فتـح لهـم بابـا واسـعا مـن أبـواب الجـدل اللفظـى والتخريـج اللغـوى، فعندهـم كل صـواب يمكـن أن يكـون خطـأ، وكل خطـأ يمكـن أن يكـون صوابـا، وكل كلام علـى أى وجـه مـن الوجـوه يجـب تفسـيره وتأويلـه، تلـك هـى شـكوى الزيـات أحـد الأئمـة الكبـار فـى اللغـة والأدب مـن النحـو العربـى، وهـى شـكوى تتضمـن الدعـوة إلى التجديـد والتبسـيط حتـى لايتحـول الناطـق باللغـة العربيـة إلى بهلـوان يلعـب بالألفـاظ ويحركهـا علـى كل الألـوان، وينتهـى الأمـر إلى مايشـبه الهجـرة الجماعيـة مـن اللغـة العربيـة إلى العاميـة أو إلى اللغـات الأجنبيـة، وهـو ماينبغـى علاجـه بكثـير مـن الحكمـة والكفـاءة، وإعـادة النظـر فـى تعـدد القواعـد وتعقيدهـا وصعوبتهـا مـع التحذيـر مـن الوقـوع فـى الفوضـى، فالخـروج مـن الجمـود إلى الفوضـى هـو خـروج مـن حفـرة للوقـوع فى حفـرة أعمق.

وقـد ضـرب الزيـات نمـاذج لعـدد مـن المتحذلقـين الذيـن أفسـدتهم هـذه الطريقـة فـى تفسـير كل شـئ علـى وجـوه متناقضـة، ومـن ذلـك أن أسـتاذا كتـب علـى ورقـة طالـب: (لايصلـح) أى أن الطالب راسـب، ولمـا رُوجعـت الورقـة تبـين أنـه ناجـح، وسُـئل الأسـتاذ فـى ذلـك فقـال: قـولى: لايصلـح، صوابـه يصلـح و (لا) زائـدة، ومـن النمـاذج الطريفـة ذلـك الأسـتاذ الـذى أخطـأ فـى قـراءة حديـث نبـوى يقـول: (المؤمـن كيـس فطـن)، كيـس مـن الكياسـة، وفطـن مـن الفطنـة، فقـرأه الأسـتاذ: المؤمـن كيـس قطـن، ولمـا سـئل كيـف يكـون المؤمـن كيسـا

من القطن، لم يعترف بخطئه فى القراءة، بل قال: إن المؤمن أبيض طيب القلب كالقطن، وهذا كما يقول الأستاذ رجاء النقاش (أهرام ٢٠ يونيو ٢٠٠٤م صـــ١٢) من طرائف المنهج العبثى الذى يمكن به تفسير كل شئ وتبريره، حتى لو كان هناك تناقض يرفضه العقل والذوق.

ومن أسباب ضعف اللغة العربية وهبوط مستواها:

- عدم التزام التلاميذ بوجودهم فى مدارسهم المدة الكافية على مدار العام.
- عدم التزام بعض المدرسين بآداء ماعليهم على الوجه الأكمل.
- وباء الدروس الخصوصية الذى يُظن خطأ أنه يرفع مستوى الطالب.
- عدم جدية الرقابة من بعض الموجهين ومسئولى الإدارات التعليمية.
- عدم وصول بعض المدارس إلى المستوى اللائق للعملية التعليمية.
- رداءة الكتاب المدرسى وعدم جودته أو قدرته على جذب التلاميذ.

ولعل من أسباب هبوط المستوى اللغوى للجماهير عدم الاهتمام الكافى من قِبل أجهزة الإعلام بقضايا الفكر الدينى، ذلك أنه كلما اهتمت المؤسسات التعليمية والإعلامية والثقافية بعلوم القرآن والحديث والشريعة وغيرها من العلوم الإسلامية وجهان لعملة واحدة، فالقرآن الكريم هو الذى حافظ على هذه اللغة من الضياع

والتحريف، حيث إن البرامج والفقرات والمقالات الدينية يمكن أن تلعب دورا حيويا للارتقاء باللغة العربية التى تُقدم بها المادة الإعلامية والإسلامية فى مختلف وسائل الاتصال بالجماهير.

ومن مظاهر ضعف اللغة العربية مايبدو فى شوارع القاهرة وغيرها من المدن المصرية من اهتمام بالغ باللغات الأجنبية، وإنشاء معاهدها، والإقبال على تعلمها، بينما ينصرفون عن تعلم العربية، حتى ليعد من يحرص على التمسك بها من أبنائها متخلفا عن عصره، وبعيدا عن معانى الحضارة والحياة الحديثة، والذى يسير فى شوارع القاهرة ويقرأ لافتات محلاتها ومابها من أسماء أجنبية يخيل إليه أنه يسير فى مدينة أوروبية.

إن الأمم المتحضرة تتمسك بلغاتها وتهتم بها، ومن مظاهر هذا الاهتمام الحرص على استعمالها فى المواقف اللغوية المختلفة، وإثبات قدرتها على التكييف مع أساليب الخطاب التى تتنوع بعدد الشرائح الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وبهذا تثبت اللغة مرونتها وقدرتها على الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

ولايختلف اثنان على أن اللغة العربية تنسحب الآن تاركة الساحة للغات الأجنبية، ولو أن هذا يحدث فى الجامعة فقط لاعتبرناه مسألة استثنائية، ولكنه تطور فى العقود الأخيرة، فأصبح يبدأ من الحضانة إلى الجامعة، بل ويشمل الكثير من وسائل الإعلام، وانتقل إلى الممارسة اليومية على لسان البسطاء والأميين الذين يرددون كلمات يسمعونها، وهو أمر لم يحدث حتى فى سنوات التسلط الاستعمارى فى مصر، والأكثر غرابة من هذا أن مدارس اللغات تطالب الآباء بعدم التحدث مع أبنائهم

باللغة العربية فى المنازل، كما أن بعض أساتذة الجامعات يعتبرون من لا يتحدث الإنجليزية طالبا متخلفا، وهكذا يتهافت الجميع على المدارس والمعاهد التى تدرس اللغات، وأصبحت المدارس الحكومية مقصورة على أبناء الطبقات الفقيرة.

إن نسبة ما تبثه أجهزة الإعلام بالعامية، وبلهجة رجل الشارع تزيد كثيرا على مايقابله بالفصحى، ولاسيما فى مجال الأعمال الدرامية والمنوعات التى تقدم باللهجات المحلية، والتى يندر فيها استعمال الفصيح من اللغة ماهو إلا تدمير مُعلن وتخطيط مُدبر للقضاء على اللغة الأم والمتحدثين بها والمنتسبين إليها.

وقد أدّى الابتذال، واستخدام بعض الألفاظ الهابطة والكلمات الغير لائقة التى تلوكها ألسنة الممثلين وغيرهم، وعدم الحفاظ على الحد الأدنى من الأصول والقواعد اللغوية إلى تأثر جماهير أجهزة الإعلام ولاسيما الأجهزة السمعية والبصرية بما يسمعون ويشاهدون، وشيوع الكلمات المحرّفة، والمصطلحات المبتذلة، ويتجلى ذلك بصورة واضحة فى شيوع المسميات الأجنبية فى برامج الأطفال وإعلانات التليفزيون، حتى فى المأكولات الترفيهية للأطفال على الرغم من وجود المرادفات العربية الميسورة.

إن نظرة سريعة للاعلانات التليفزيونية أو اللافتات المنتشرة فى الشارع العربى، أو القراءة العابرة للأسماء والمسميات لتدعو إلى الألم والحسرة، وتثير فى النفس الأسى والحزن حين تصاغ هذه الإعلانات بلغة أجنبية وحروف عربية أو العكس، فهل فرغت قواميس اللغة، ونضبت مُسميات التجارة العربية من أسماء المنشآت والمرافق والمحال والمؤسسات الاقتصادية ؟ فإذا أضفنا

إلى ذلك مايبث من أغان ومايذاع من أفلام وتسجيلات تعكس الإسفاف وغثاء القول الذى يقلده الصغار والصبية، ويتداوله الكبار، ثم يرونه على الشاشات الفضائية،أو فوق خشبة المسرح، وإذا أدركنا الإنتاج الفكرى الذى يتم بثه فى الفضاء الالكترونى وعبر شبكة المعلومات الدولية دون أن يكون للغة العربية نصيب فيه سيتضح لنا حجم المأساة التى تهدد الهوية العربية.

ومن أسباب ضعف اللغة العربية دائرة التلقين التى يدور المدرسون فى فلكها سواء فى الدرس المدرسى أو فى الدرس الخصوصى، حيث يكون كل هم المدرس أن يفرغ المعلومات ليحشرها فى أذهان التلاميذ كما يحشر الطعام غير المرغوب فيه، فالطعام فى هذه الحالة لا تكون له أى فائدة تعود على الجسم، وكذلك المعلومات التى تُحشر فى الأذهان عن طريق التلقين لايكون لها أى مردود، بل إن المدرس بهذه الطريقة يشل أفكار التلاميذ، فالمدرس فى الفصل أو فى المنزل يلقى المادة بينما التلاميذ صم بكم عمى فهم لايفقهون.

والمدرس فى المنزل يغتال دخل الأسرة ويغتال فكر التلميذ، ولست أرى تعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق، فالنطق سمة تخص كل الكائنات الحية، كل بطريقته الخاصة، ولكنى أرى أن الإنسان حيوان مفكر، وإذا كان المدرس يغتال فكر التلميذ فإنه لايترك فيه إلا الحيوان الأعجم.

إن الطريقة المثلى للتدريس – كما كنت أفعل مع تلاميذى – تتمثل فى أنهم يكلفون بتحضير الدرس فى المنزل قبل شرحه فى الفصل، وليس بلازم أن يستوعبوه أو يفهموه فهما دقيقا، فيكفى

أن يلموا بفكرته الأساسية، ثم تكون مهمة المدرس فى الفصل أن يشرح الدرس عن طريق المنافسة وليس عن طريق التلقين. بهذا يكون إعمال العقل والمنطق والبحث العلمى كأسس للعملية التعليمية حتى يكون لذلك تأثير إيجابى على المجتمع وعلى جميع أبنائه.

إن المدرس الخصوصى يغتال دخل الأسرة، ثم يترك لهم أشلاء ابنهم بعد أن يكون قد اغتال فكره ومزقه بساطور الدرس الخصوصى.

ثم أين كرامة المعلم الذى يقول فيه الشاعر:

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

أين كرامة هذا المعلم الذى يقف على الباب ويطلب منه أن ينتظر حتى يتهيأ من فى الداخل لاستقباله ويظل واقفا كما يقف المتسولون.

ومن أسباب ضعف اللغة العربية كثرة ما فى النحو من التعقيدات جعلت المازنى يقول:

تفكرت فى النحو حتى مللت وأتعبت نفسى به والبدن

إلى أن يقول:

فقد خفت يابكر من طول ما أفكر فى أمر (أن) أن أجن

وهذا شبيه بما يقوله الكسائى: (أموت وفى نفسى شئ من حتى)

ويقولون: (أي هكذا خلقت)

ومن مظاهر ضعف اللغة العربية انتشار الكلمات الأجنبية التى جعلت الكثيرين يعزفون عن لغتهم ولايهتمون بها، وقد أدهشنى أننى رأيت فى الأيام الأخيرة برنامجا يعرض فى التليفزيون اسمه

(ماسبيرو) وأن أحد الموضوعات المعروضة للمناقشة اسمه (هوس الشوبينج) أى هوس الشراء أو حمى الشراء، وعلى الرغم من أن برامج التليفزيون تعرض لعامة الشعب فإنه كثيرا من الأفراد لا يفهمون بسهولة ويسر معنى (هوس الشوبنج) ولو قيل باللغة العربية هوس الشراء أو حمى الشراء لكان أكثر فهما وأشد تيسيرا.

لقد وصلت المهانة باللغة العربية إلى أن البعض يقول فى عرضه لكتاب: إنه يضم تراكما معرفيا، وتطورا ومتابعة لكل ماهو **(up to date)** أى جديد أو حديث، وأحيانا نجد بعض أساتذة الاقتصاد أو القانون يشعرون بأن المصطلح الذى يكتبونه باللغة العربية لايعبر عن ما يدور فى ذهنهم فيكتبون مقابله باللغة الإنجليزية، برغم أنه قد يكون مصطلحا شديد الوضوح، ولكنهم يترددون فى الاعتماد على لغتهم القومية التى كانت فى يوم من الأيام لغة العلوم والحضارة، ومن ثم فلن نعجز عن توفير المقابل العربى السليم للكثير من مصطلحات العلوم والتكنولوجيا الحديثة.

وفى مصر تهتم معظم الأسر بأن يكون الأبناء متقنين للغة الأجنبية.

وبينما أحيا اليهود لغة كانت قد ماتت وهى العبرية لتصحيح لغة حديث وكتابة وتعليم بين شعب لايتجاوز خمسة ملايين نسمة، فإننا – على العكس – نحاول أن نميت لغتنا الغنية بمفرداتها ومترادفاتها وأن نجعلها مقصورة على الاستخدامات الدينية والفقهية .

ومن المؤسف أن تصبح اللغة الفصحى بعيدة عن ألسنة مدرسيها الذين كانوا أحق بها وأهلها، وكان الأحرى بهم أن يكونوا حماتها والمدافعين عنها، فهم كثيرا ما يخطئون فى الأداء ولايلتزمون بالتحدث بلغة عربية سليمة.

ولأن تهاجم اللغة العربية من خصومها وأعدائها فهذا متوقع، وأن تهاجم من المثقفين غير المتخصصين فيها، أو من العلماء الذين يجدون بحكم التخصص فى اللغات الأجنبية مدخلا سهلا إلى توصيل مصطلحاتهم المتعارف عليها دوليا فهذا مفهوم، وقد يبرر على مضض واستحياء، وأن تهاجم أحيانا من قبل غير المهتمين بها أو غير المعنيين بقضاياها ومشكلاتها فقد يبدو الأمر سهلا وهينا، أما غير المقبول وغير المعقول فهو أن تهاجم من أبنائها المتخصصين الذين يحملون رسالة تعليمها ونقلها إلى شباب الجامعات، والذين يحاولون فرض مفاهيم غريبة يلصقونها بالفصحى الجميلة وهى منها براء.

أفلا يجدر بنا أن نحاسب أنفسنا على كل صور الإهانة والازدراء التى قد يوجهها إليها نفر غير عابئين بتاريخها وأصالتها، وغير ملتفتين إلى واجبنا القومى الذى يفرض علينا تأصيل الانتماء وتأكيد منطق الولاء لهذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس. إن ندرة الحديث اللغوى السليم فى الإعلام المرئى فى قنوات التليفزيون وسيطرة اللهجة العامية هو أحد معاول الهدم فى بناء اللغة العربية، وهذا التجرؤ على اللغة فى أجهزة الإعلام الرسمية مهد للتجرؤ عليها فى الإعلانات التى تدنت لغتها إلى حد الإسفاف، وهو تجرؤ أدى إلى إنحسار الحروف العربية من واجهة المحال، حتى صار الأمر مخجلا حين يُكتب اللفظ الأجنبى بالحرف العربى، وهو مايؤدى إلى إزدياد هجر اللغة وسيطرة العجمة. وللأسف فإن أجهزة الإعلام الرسمية لم تفكر فى إقامة برامج لتعليم اللغة العربية و تحبيبها

إلى الناس وفق مستويات لغوية متنامية تتسم بالصحة واليسر معا.

إن القراءة هى مجال خصب للتدريب على نطق وقراءة التراكيب، بل إن القراءة هى محك الاختبار فى جدوى النحو ومردوده، حيث تتعدد الأساليب التى تقوّم اللسان وتمكن الطالب أن يقرأ النص قراءة لغوية صحيحة ويدرك نوع التركيب ويضبط الجملة ويفهم المعنى، وهذا أجدى نحويا وأفضل من أن نفضل النحو كوحدة لغوية عن القراءة كوحدة لغوية أخرى.

إن المران اللغوى المتصل وقراءة النصوص بوفرة وسلامة فى إطار من الضوابط النحوية هو أحد مخارج النحو من أزمته وأحد أسباب القرب من اللغة والشغف بها.

إننا حين نكره لغتنا فكأننا نكره أنفسنا، ونستشعر الدونية، لأن اللغة مدخلنا إلى الفكر وهى دالة بذاتها علينا، وفى أسوأ الحالات فإن التصريح بالعداء لهذه اللغة قد يبدو جزءا من مؤامرة نشارك فيها للنيل منها، والتاريخ شاهد على أصالة لغتنا، وضامن لبقائها وصمودها واستمرارها على الرغم من ظهور محاولات التقريب أو تغليب العاميات أو الترويج للغات الأجنبية. فالعيب فينا حين نجهل لغتنا، أو حين نعجز عن التعامل الصحيح والصريح معها، والعيب فينا حين نتسابق إلى محاولة النيل منها، أو نقصد إلى ازدرائها وقهرها، والعيب فينا حين نعجز صراحة عن الوفاء بواجباتنا نحوها، والعيب فينا حين نكون ضعفاء متهافتين نلهث وراء كل غربى لأنه غربى، ونرفض كل عربى لنصل بذلك إلى قمة التضاؤل والضياع.

ومما أدى إلى ضعف اللغة العربية أنها تحتل فى المناهج الدراسية مكانة متدينة بالقياس إلى المواد الأخرى لدراسته، سواء من حيث عدد الحصص، أو الدرجة المخصصة لها، أو الأنشطة المتعلقة بها، كالصحافة المدرسية والإذاعة والخطابة والجماعات الأدبية والشعرية والمسرح ومسابقات القراءة .... إلخ

كما أن طريقة التدريس أصبحت مقصورة على حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات، وليس على اكتساب المهارات وتربية ملكات التفكير والقدرة على حل المشكلات.

هذا إلى جانب أن الكتب المدرسية تجعل الطلاب يكرهون اللغة لعدم عنايتها بالتراث القومى فى صوره الجميلة الرائعه .

وبالرغم من خطر اللغة العربية ودورها المؤثر الفعال فى حياة الفرد والجماعة فإننا نهون من شأنها حين نجعل المدخل إليها فى تعليم الأطفال هو النحو بقواعده وتعقيداته بدلا من الصور الفائقة من أدبها شعرا ونثرا.

ومما يهون من شأنها أيضا الموجهون أنفسهم بطريقتهم التى تشجع على وجود مأساة الدروس الخصوصية، ذلك أن المدرس لا يهتم بدرسه داخل الفصل ولا بإعداد هذا الدرس ولابتصويب أخطاء التلاميذ، ولابمدى ما فهموه واستوعبوه، والموجه لايلتفت إلى شئ من ذلك، وإنما قصاراه أن ينفذ خطته التى خرج بها من الإدارة التعليمية، وحسبه أن يذهب إلى المدرسة، ويحدد لكل مدرس اليوم والحصة التى سيزوره فيها دون أن يفاجئه بتلك الزيارة تجنبا للمشكلات، وابتعادا عما يغضب المدرس، وفى النهاية يسجل فى دفتر الزيارات أن العمل يسير سيرا حسنا، وأن

كل شئ على مايرام، وأنه راض كل الرضا عن أعمال المدرسين، وهم أيضا راضون كل الرضا بتقاريره عنهم، أما التلاميذ ومستواهم التحصيلى وطرق التدريس لهم فذلك شئ لايدور فى الحسبان.

حدث هذا وغيره مما يضيق به صدرى ولا ينطلق لسانى فى الستينات والسبعينات حينما كنت أقوم بالتدريس فى المدارس الثانوية، وكنت شاهد عيان، أما الآن فلا أدرى ماذا يكون الحال، وإن كنت ألاحظ أن حال اللغة يزداد سوءا، غير أنى ألمح من وراء السحب وميض نهضة تعليمية من خلال ثورة المعلومات، وثورة التحديث على وجه العموم، لكنى فى الوقت نفسه أرى أن فى مصر مدارس تحرم على التلاميذ الحديث باللغة العربية، وهى تعلم يقينا أن هذه اللغة تمتهن وتنتهك حرمتها.

لقد صدر القانون رقم ١١٥ لسنة ١٩٥٨ بتحريم استعمال الأسماء الأجنبية وكتابتها بطريقة مستفزة على لافتات المحال التجارية، ولكن هذا القانون لك يكتب له أن يرى النور، ولم يلق استجابة تذكر، بل إن الأمر استشرى واستفحل فى الأيام الأخيرة، وأصبحت اللافتات كلها – تقريبا – باللغات الأجنبية، وأصبحت المحال التى تحمل هذه الأسماء أكثر رواجا، وأشد إقبالا.

ومما يهون من شأن اللغة أيضا، ويغرس فى نفوس الشباب كراهيتها والنفور منها أسئلة الامتحانات التى كثيرا ماتأتى معقدة وفوق مستوى التلاميذ، ومن أمثلة ذلك أن يطلب من التلميذ فى المرحلة الابتدائية أن يأتى بمفرد (معى) ومؤنث (الأدنى) ومضاد (القرى) وغير ذلك مما لايناسب مستوى التلميذ فى هذه المرحلة.

بل من العجب أن نرى سؤالا فى المرحلة الثانوية نصه كالآتى:

صوب العبارة الآتية وانقلها فى ورقة الإجابة:

- التلاميذ يسلمون على بعضهم.
- الأصدقاء يزورون بعضهم.
- المتصارعان هجما على بعضهما.
- الأستاذ ضم القسمين إلى بعضهما.

ويلاحظ – هنا – أولا: عدم فنية السؤال لأن العبارات الأربع ليس فيها تنويع، فهى تدور حول شئ واحد وهو كلمة (بعضهم) أو (بعضهما)، وثانيا: أن تصويب هذه العبارات من شأن المتخصصين فى اللغة العربية، لأن تلميذ المرحلة الثانوية يصعب عليه أن يصحح العبارات على النحو التالى:

- التلاميذ يسلم بعضهم على البعض.
- الأصدقاء يزور بعضهم بعضا.
- المتصارعان هجم بعضهم على الآخر.
- الأستاذ ضم أحد القسمين إلى الآخر.

وقد وقع فى هذا الخطأ بعض كبار الأدباء الذين هم من أكثر الناس حرصا على سلامة اللغة العربية وتعاطفا معها، ففى أهرام ١٩٩٤/١/٧م كتب الأستاذ أحمد بهجت كلمة عن على باشا مبارك ورفاعة الطهطاوى قال فيها: «وكان القطبان يكملان بعضهما»، والصواب (يكمل أحدهما الآخر).

ومـرة أخـرى أقـول إن حفـظ القـرآن الكريـم وكثـرة تلاوتـه يعـود الإنسـان علـى التعبـير الصحيـح، ذلـك أن هـذه العبـارات نفسـها وردت فـى عشـرات الآيـات، ومـن ذلـك:

* **قولـــه تعـــالـى:** [وإذا خـلا بعضهـم إلى بعـض – فـإن أمـن بعضكـم بعضـا] (٧٦ – ٢٨٣ – البقـرة).

لم يقل: وإذا خلوا إلى بعضهم، ولم يقل: فإن أمنتم بعضكم.

* **قوله تعالـى:** [ولايتخذ بعضنا بعض أربابا] (٦٤– آل عمران).

* **قولـــه تعـــالـى:** [وكيـف تأخذونـه وقـد أفضـى بعضكـم إلى بعض] (٢١– النسـاء).

لم يقل: وقد أفضوا إلى بعضهم، أو إلى بعضهم البعض.

* **قولـــه تعالـى:** [يوحـى بعضهم إلى بعـض زخرف القـول – وكذا١لك نـولى بعـض الظالـمين بعضـا] (١١٢–١٢٩–الأنعـام).

* **قولـــه تعـــالـى:** [وإذا ماأنزلـت سـورة نظـر بعضهـم إلى بعـض] (١٢٧–التوبـة).

لم يقل: نظروا إلى بعضهم.

* **قوله تعالـى:** [ليتخذ بعضهم بعضا سخريا] (٣٢–الزخرف).

* **قولـــه تعالـى:** [ثـم يوم القيامـة يكفر بعضكـم ببعض ويلعـن بعضكم بعضـا] (٢٥–العنكبوت).

* **قوله تعالـى:** [بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا] (٤٠– فاطر).

* **قولـــه تعـــالى:** [فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث] (٤٤-المؤمنون).

* **قوله تعالى:** [ولايغتب بعضكم بعضا] (١٢-الحجرات).

وهنـاك بعـض الأسـئلة التـى تقتـل فـى التلاميـذ روح التفكـير والابتـكار، وتلزمـه بـأن يكـون صـورة ضوئيـة مـن نمـوذج الإجابـة، بحيـث لـو خـرج علـى هـذا النمـوذج كانـت إجابتـه خاطئـة، فقـد حكـى د. حامـد عمـار فـى كتابـه (بنـاء الإنسـان) أن ابنتـه فـى المرحلـة الأولى طلـب منهـا فـى أحـد الأسـئلة أن تمـلأ الفـراغ الآتـى: (يوصلنـى.....إلى المدرسـة) فأجابـت التلميـذة: (توصلنـى أمـى إلى المدرسـة).

وكانـت الإجابـة خطـأ، حيـث كتبـت لهـا المدرسـة الإجابـة الصحيحـة وهـى: (يوصلنـى أبـى إلى المدرسـة)، وعجبـت البنـت قائلـة لأبيهـا: إنـك لم تكـن توصلنـى، ولكـن أمـى هى التـى كانـت توصلنى، وعجـب أبوهـا كيـف يحتسـب خطـأ ذلـك التصـرف مـن البنـت الـذى يتفـق مـع الواقـع، ويـدل علـى تصرفهـا فـى الإجابـة، وإن ترتـب علـى ذلـك تعديـل طفيـف فـى صيغـة النمـوذج وهـو (توصلنـى) بـدلا مـن (يوصلنـى)، بـل إن ذلـك علـى العكـس يـدل علـى ذكاء التلميـذة حيـث أتـت بالفعـل الـذى يناسـب الفاعـل.

وإلى جانـب ذلـك أسـئلة تثـير السـخرية مـن اللغـة العربيـة، فقـد بلـغ الإسـفاف إلى حـد أن يوضـع سـؤال يطلـب مـن التلميـذات بالصـف الأول الثانـوى توضيـح الصـورة البلاغيـة فـى أغنية(يامـه القمـر علـى البـاب)، ولاشـك أن واضـع هـذا السـؤال يريـد أن يتظـرف ويجـذب

مشاعر التلميذات، ولتذهب اللغة الفصحى إلى الجحيم، وإلا فهل إقفرت النصوص الأدبية من النماذج الجيدة التى تتضمن الصور البلاغية؟ والغريب أن المسئولين أقروا هذه الأسئلة التى تعد وصمة عار فى جبين اللغة العربية، بدل أن يحاسبوا واضع هذا السؤال، ويوقفوا الطوفان الذى يصيب لغتنا فى مقتل.

وهكذا يتبين لنا أن واقع اللغة العربية عند أبنائها يتمثل فيما يأتى:

- انهيار اللغة على ألسنتهم وأقلامهم.
- شيوع الأسماء والمسميات الأجنبية.
- الابتعاد عن الفصحى وشيوع العامية.
- فساد الذوق الأدبى نتيجة لفساد التعليم الذى كان سببا فى تغيير الشباب من لغته القومية، ومن أدب هذه اللغة وبلاغتها ونحوها وصرفها وكل مايتصل بها.

وقد كانت الإذاعة المسموعة تلتزم أوائل ظهورها باللغة الفصحى، وتسللت إليها العامية على استحياء، ثم مالبثت أن زاحمتها، وبالتدريج تمت لها الغلبة فى كثير من البرامج.

ومن العجيب أن نجد الأقسام العربية فى الإذاعات الأجنبية، وعلى رأسها إذاعة لندن تتمسك بالعربية الفصحى دون أى لحن أو خطأ، بينما الإذاعة – عندنا – التى يفترض أن تكون غيورة على العربية الفصحى تفسح مجالا واسعا للعامية.

وحينما ظهر التليفزيون فى النصف الثانى من القرن العشرين أفسح مكانا كبيرا فى بثه لاستخدام العامية، ثم انتشرت هذه

العامية فى قنواته الفضائية، مما يمثل خطرا شديدا على اللغة العربية، لأن هذه القنوات تصل إلى كل شعوب العالم.

ومن العبارات الخاطئة التى تتردد على الألسنة جهلا باللغة العربية أن يسأل سائل: هل تريد مساعدتى؟ فيكون الجواب: لاعافاك الله، أو لا شكرا؛ والصواب أن يقال: لا وعافاك الله، أو لا و شكرا، ففى هذا التعبير يدعو له بالعافية، أو يشكره على موقفه، بعكس التعبير الأول، وهذا باب فى علم البلاغة يسمى (الفصل والوصل)، وهنا يجب الوصل وهو العطف بالواو لدفع إيهام غير المراد، فانظر ماذا فعل حرف الواو فى معنى العبارتين، وانظر أيضا ماذا فعل التنكير والتعريف فى إحدى الاتفاقيات بين العرب وإسرائيل، حيث قال (أبا إيبان) (أراض) احتلتها إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ م بدلا من كلمة (الأراضى)، وكأن (أبا إبيان) يعى أسرار اللغة العربية حين دفعه المكر والخبث إلى إستعمال التنكير.

ولغتنا العربية لغة ثرية تحمل عناصر القوة ووسائل الدفاع، وكم تصارعت مع غيرها من اللغات الأجنبية فكانت لها الغلبة والنصرة، ولقد جرت محاولات لتخريب اللغة العربية من تيارات فكرية معادية بهدف القضاء عليها، والذين يحملون لواء العداء لهذه اللغة إنما يعمدون إلى طمس الهوية العربية، والقضاء على لغة القرآن الكريم، وقد تحركت محاولاتهم على النحو التالى:

- فى سنة ١٨٨٠ م ألف أمين دار الكتب المصرية فى ذلك الوقت – وهو ألمانى الجنسية – كتابا أسماه (قواعد اللغة العامية فى مصر) ودعا فيه إلى إحلال العامية محل الفصحى.

- فـى سـنة ١٨٦١ م اقترحـت مجلـة (المقتطـف) المتعاطفـة مـع الإنجليـز أن تكتـب العلـوم بالعاميـة، ودعـت أصحـاب الأقـلام إلى مناقشـة هـذا الاقـتراح.

- فـى ١٩٠١ – ١٩٠٢ م أخـرج القاضـى الإنجليـزى بمحكمـة الاسـتئناف بالقاهـرة كتابـا أسمـاه (لغـة القاهـرة)، واقـترح القواعـد لهـذه اللغـة العاميـة، كمـا اقـترح أن تكتـب بهـا العلـوم والآداب، ودعـا إلى أن تكتـب بالحـروف اللاتينيـة، وقـد أشـادت مجلـة المقتطـف بالكتـاب باعتبـاره مؤيـدا لدعوتهـا القديمـة، وهـاج النـاس، وثـار الـرأى العـام، وحملـت الصحـف المخلصـة علـى هـذه الدعـوة لأنهـا تحـارب الإسـلام فـى لغتـه، وقـد شـارك فـى ذلـك شـاعر النيـل بقصيدتـه الرائعـة علـى لسـان حـال اللغـة العربيـة.

- فـى سـنة ١٩٢٦ دعـا إنجليـزى آخـر وهـو مهنـدس بالـري المصـرى إلى هجـر اللغـة العربيـة وأعطـى مثـلا عمليـا فـى هجرهـا، حيـث ترجـم الإنجيـل إلى اللهجـة القاهريـة العاميـة، وكان مـن كبـار مؤيـدى هـذه الدعـوة (سـلامة موسـى)، وأثنـى علـى هـذا المهنـدس كأديـب، وكواحـد مـن الإنجليـز المخلصـين لمصـر، وأخـذ يوضـح أسـباب ضيقـه باللغـة الفصحـى ودعوتـه إلى العاميـة، وقـد ثـار النـاس مـرة أخـرى وحملـوا علـى العاميـة ودعاتهـا.

- قـدّم د. فهمـى عبدالعزيـز باشـا وهـو كبـير أعضـاء مجمـع اللغـة العربيـة بالقاهـرة بحثـاً إلى مؤتمـر المجمـع، وقـدّم صـورة لمشـروع يتمثـل في اسـتبدال الحـروف العربيـة بالحـروف اللاتينيـة.

- في سـنة ١٩٧٤م وبعـد أن ظـن النـاس أن الموضـوع قـد هـدأ أو مـات ظهـر حيـا في الصومـال العربـي وعضـو الجامعـة العربيـة حـين

قررت حكومة الثورة هناك إلغاء الحرف العربي، وإحلال الحرف اللاتيني محله، ووضع الأمر موضع التنفيذ، وكانت الصومال هي الدولة الثانية بعد تركيا في هذا المضمار.

وتاريخنا الثقافي يشهد بأن الأستاذ على الجارم ومصطفي صادق الرافعي والشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) وغيرهم من المخلصين قد كافحوا عن لغتهم، وكشفوا مخطط الأعداء الذي يرمي إلى تمزيق الأمة العربية والقضاء على تراثها وكتابها السماوي. وقد أوصي المجلس القومي للثقافة والإعلام بأن تحرص وسائل الإعلام على إحلال اللغة العربية السهلة محل العامية، وأن يقتصر استخدام اللهجات على الأعمال التي تناسب طبيعتها مثل المواد الترفيهية والمسلسلات الاجتماعية، مع تجنب استخدام الألفاظ غير اللائقة في الأغاني والمسرحيات والإعلانات، إلى جانب تشجيع استخدام اللغة الفصحي في برامج الأطفال والإذاعة والتليفزيون .

مسئولية ضعف اللغة العربية

إن الهجوم على اللغة العربية واتهامها بالضعف والتخاذل عن مواكبة تقدم العلوم والتكنولوجيا، أو تدهورها بين أبناء هذا الجيل – هذا الاتهام ينبغي أن يوجه إلى أهل اللغة الذين هم جديرون برعايتها وحمايتها كما صنع أسلافهم على مدى حِقب التاريخ.

إن لغتنا تحتاج – بالضرورة – إلى فريق من الأمناء عليها، وأهل الغيرة على أرصدتها التاريخية والمعاصرة مع فريق من حماتها وحراسها يقومون على تحديث مناهجها وتجديد آلياتها والباسها ثوباً عصريا يفوح منه عبق التراث والحضارة معاً دون تخاذل أو تراجع أو استخفاف أو ازدراء، فلغتنا عبقرية بماضيها، وستظل كذلك بحاضرها ومستقبلها إذا أحسنا إليها كما أحسنت إلينا علماً ودیناً وفكراً وثقافةً وفناً في كل مراحل عمرها المتجدد.

وكذلك يجب أن يوجه الاتهام إلى العرب أنفسهم كما وجه من قبل إلى المسلمين في قضية تشويه صورتهم، وذلك أن أبناء اللغة هم أولى بالدفاع عنها في مواجهة خصومهم وأعدائهم، وسيجدون من رصيدهم ما يدعم أسلحتهم الدفاعية، فلم تكن يوماً لغة هزيلة أو ضعيفة بقدر ما بدت قادرة على البقاء قدرتها على قبول صور التحديث والتطور حتى في أحلك فترات الهجوم الشرس عليها وعلى أهلها.

علينا إذن أن نتهم أنفسنا بأننا:

- قصرنا في حق لغتنا حين فشلنا في توصيلها إلى الأجيال الجديدة بأساليب سهلة ميسورة، بعيداً عن التعقيد والصعوبة التي لا يستسيغها الجيل الجديد، ربما بحكم ما أتيح له من وسائل تكنولوجية هيأتها له ثورة الاتصالات عبر الحاسب الآلي وشبكات الإنترنت، وتعدد وسائط التعليم المعاصر، الأمر الذي يحتاج إلى تحديث مناهج اللغة وتحديث فكر القائمين على أمرها عبر دورات تدريبية، أو توفير مناهج معاصرة يحسن أن ينهلوا منها ويطبقوها بما ينقذ الوجدان الأدبي للطلاب مما أصابه من الفجاجة والرغبة في الانقطاع المعرفي عن التراث أمام بريق المادة المعاصرة، مما يستدعي إعادة قراءة التراث وإعادة برمجة القديم في منهج عصري جديد.
- قصرنا في حق لغتنا حين اكتفينا بتشخيص ما أصابها من المرض على أيدي نفر عجزوا حتى عن التحدث بها أو الكتابة الصحيحة بمفرداتها وتراكيبها، وكانت نتيجة ذلك رغبتهم في تغطية جهلهم وعجزهم بالهجوم على اللغة واتهامها بالصعوبة والتعقيد، واللغة من اتهامهم براء، فالعيب في أبنائها لأنهم لم يتمرسوا بها جيداً ولم يحرصوا على تصحيح أخطاء نطقهم وكتابتهم، وصدق الشاعر الذي يقول:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

ولقد وجدنا في ادعاء الفرنجة ونشر العامية ما يمكن أن نزاحم به الفصحاء في صورة من المباهاة والبلاهة دون أن ندري خطر ما نفعله، وهو أننا نهدر أغلى ممتلكاتنا ونهدم أرقى صروحنا

الفكرية، ونهمش شخصيتنا وكياننا، وذلك أن الأمة التي تفرط في لغتها تفرط – بالتالي – في عرضها وتاريخها وخصوصيتها وقوميتها.

- ثم امتد تقصيرنا حين توقفنا عن حد تشخيص المرض، في حين أن الواجب علينا أن نحدد طبيعة العلاج، صحيح أننا عرفنا وحددنا مصدره النظري عبر المؤتمرات والندوات والجمعيات والتوصيات، ولكننا لم نحسن توزيع جرعات الدواء، إذ ربما نعرف كيف نبدأ رحلة العلاج الحقيقية من خلال تفعيل التوصيات وإنجازها إنجازا فعليا على أرض الواقع الثقافي والتعليمي بعيدا عن المزايدات أو الادعاءات بأن (كل شيء تمام)، وبأن كل المناهج قد طورت وحدثت حتى وإن جاء التحديث في صور شكلية على أغلفة الكتب، مما ينأي عن التجديد والتطوير الفعلي الذي تنعكس آثاره في قدرة لغتنا على جذب أبنائها إليها، إلى جانب ما ينقذون من لغات أخري يظل تعلمها أمرا ضروريا ومهما ومطلبا عصريا ملحا شريطة ألا يكون ذلك على حساب الأم التي يعد التفريط فيها تفريطا في هويتنا وكرامتنا. والآن علينا أن نبدأ مرحلة العمل والإنجاز الفعلي في شكل واقعي ننتظر نتائجه بعيدا عن التشدق والانفعالات أو التباكي على أحوال اللغة، وكأننا نكتفي بموقف المتفرج الذي يسهم دون أن يدري في زيادة المحنة وتفاقم الأزمة، بدلا من أن يشارك في القضاء عليها من خلال طوق النجاة الذي يمتلكه فكرا وثقافة وعطاء ومشاركة وتجاوبا.

وهناك أيضا مسئولية الإعلام، فقد كثر الكلام عن تراجع اللغة العربية في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، مع كثرة الأخطاء اللغوية على ألسنة المتحدثين، مما يشكل خطرا على لغتنا الجميلة التي نعتز بها، إن واقع اللغة العربية حاليا سواء في المؤسسات التعليمية أو وسائل الإعلام أنها مهدرة عند بعض الإعلاميين، وهذا الواقع يمكن مواجهته من خلال إقامة حلقات تدريبية بصفة مستمرة، مع عقد امتحانات جدية لكل من يعمل في حقل الإعلام، ويمكن تنظيم هذه الحلقات داخل الجامعات في أقسام خاصة باللغة العربية، ويجب توجيه الاهتمام إلى القائمين على أمر تدريس اللغة العربية.

إن اللغة تعد أحد الثوابت الهامة التي تحدد خصوصيات أي مجتمع، فهي وسيلة التفاهم التي تربط الأمة بتاريخها وحاضرها ومستقبلها، وقد كان للجانب الفني من أفلام ومسلسلات وأغان «نصيب»الأسد في تلويث بيئة الطفل العربي لغويا عن طريق لغة التمثيليات والفيديو كليب المفعمة بالألفاظ الشاذة والدخيلة، ويجب إعداد خطة تعليمية وإعلامية للخروج من هذا النفق المظلم الذي يهدد لغتنا.

إن هناك خطورة بالغة في أخطاء الصحف والإعلانات والمذيعين والمذيعات وخطباء المساجد، والأخطاء اللغوية في المسلسلات العربية التي يتأثر بها المتلقي والمشاهد، وينبغي أنه عندما يخطئ التلميذ في أدائه اللغوي شفويا أو كتابة، فمن الممكن تدارك خطئه في قاعة الدرس وتصويبه ورده إلى الصواب، ولكن عندما يخطئ المدرس في اللغة فإن خطأه فادحا، إذ يتناقله عند الطلاب، وإذا كان هذا الأمر يبدو خطيرا على مستوي قاعة التلقي بالمدرسة أو

الجامعة فإنه يكون أشد خطورة عندما يكون على لسان الإذاعي أو مقدم البرامج التليفزيونية أو ممثل السينما أو المسرح، فلقد غدا الإعلام معلما ورائدا يتلقى عنه الناس ويحتذون ما يقال، وهناك اختلاف في أسلوب تدريس اللغة بين العصر الحديث والقديم، فهناك جمود في بعض المصطلحات التي يدرسها التلاميذ كأبيات الشعر التي تتسم بالجمود فيصعب استيعابها، لذلك يجب تبسيط اللغة للتلاميذ لترغيبهم فيها، والتبسيط لا يعني التسطيح، ولكن المقصود عرض الأفكار المعقدة بشكل بسيط، مع الحرص على تفادي أي أخطاء لغوية، ولا بد من اختيار مقدمي البرامج على أساس اللغة أولا وليس المظهر فقط، وأي خطأ في اللغة في الأعمال الدرامية يتحمل مسئوليته المخرج، ولا بد من توجيه إنذار بالإيقاف في حالة الوقوع في الخطأ اللغوي، ولا بد من وجود نظرة جديدة لزيادة الجرعة الثقافية في وسائل الإعلام على حساب التسلية الفارغة الجوفاء التي أدت إلى التدني في المشاعر فتحولت عن مقرها الحقيقي وهو الوجدان إلى الأرجل والصدور والسيقان، بحيث أصبح عقل الأمة في جسدها المتعري والمتمايل كالبهلوان، فعلينا قتل العولمة المستوردة في مهدها قبل أن تقضي على أجيالنا الحالية والمقبلة، وتفترس أشبال هذا الجيل وأطفاله، وتفسد عليهم عقولهم وتتركهم في ظلمات لا يبصرون.

ولا بد من زيادة الجرعة التاريخية في مسلسلات ثقافية تنطق بالفصحى المبسطة للنهوض من هذه الكبوة التي ينبغي ألا تظل نهبا لموجة كل هدفها الربح التجاري على حساب اللغة السليمة والتراث الإنساني العظيم.

إن كل ناطق باللغة العربية مسلما كان أو مسيحيا في داخل المنطقة العربية مسئول عن هذا الوضع الشائن المتردي للغة العربية في عصرنا هذا، وإن أبناءنا الشباب وخريجي الجامعات المصرية – لا أقول كلهم ولكن كثير منهم – لا يجيدون كتابة عدة أسطر بلغة عربية مقبولة، فضلا عن سوء الخط وعيوب النطق وغير ذلك من دلالات إهمالنا للغتنا العربية الجميلة وعدم اعتنائنا بها.

أن من واجبنا إرشاد هؤلاء الشباب والخرجين، وتوجيههم نحو إتقان اللغة العربية لغة القرآن الكريم – وأعتقد أن إطلاق الأسماء الأجنبية على الشركات والمحلات والمنتجات المصرية زاد عن حده، وأصبح عادة سخيفة ومستهجنة، فعندما تمر في أحد شوارع القاهرة أو الاسكندرية أو المدن الكبرى تجد أغلب الشركات والمحلات عليها أسماء أجنبية، وكأنك تسير في شوارع باريس أو لندن أو نيويورك، فمحل البقالة أصبح (سوبر ماركت)، وصالون الحلاقة أصبح (كوافير)، والمقهى (كافتيريا) والمطعم المتواضع (تيك اواي) والمحل التجاري (بوتيك) أو (نوفوتيه) أو (جاليري)، وتحية الصباح (بونجور) أو (جودمورننج) بدل كلمة صباح الخير التي أصبحت تعد عيبا، بل إن بعض أصحاب المحلات كتبوا أسماء محالهم باللغة الأجنبية فقط ؛ لأنهم يتعاملون مع وجهاء (الموضة الحديثة).

وهنا يجب على المسئولين إصدار قانون بإلغاء الأسماء الأجنبية على الشركات والمحلات، وإذا كان قد صدر قانون في هذا الشأن فيجب تفعيله، ويجب عدم الترخيص لأصحاب الشركات والمحلات إذا لم يغيروا الأسماء الأجنبية.

وعلى المسئولين في مختلف المجالات التصدي بحزم وقوة لكل محاولات النيل من اللغة العربية خاصة من أبنائها الشباب الذين يبثون سمومهم بين الطلاب حول تحقير الفصحي باعتبارها حِقبة زمنية انتهت، ويجب تدريس العامية بديلا لها، ويجب اعتبار المدرس الذي ينشر هذه الدعوة خارجا على آداب المهنة ومعاديا للغة وتراثها، ربما من قبيل الجهل أو العجز أو القصور عن التواصل معها، مما يستدعي توجيهه إلى تصحيح مساره.

لابد من وقفة جادة إزاء كل صور القصور العلمي والعجز المنهجي، أو صور الضعف التي يعانيها بعض المتخصصين، مما يسهم بالفعل في انتكاسة اللغة وتدني مستوي التوصيل إلى جيل المستقبل بتوجيهه إلى العامية بديلا عن الفصحي، وهي مسألة ينبغي أن تأخذ منها وزارة التعليم العالي موقفا صريحا وواضحا، وليكن من خلال توجيه صريح وواضح بضرورة احترام المتخصصين للغتنا الفصحى المعاصرة والتراثية، ورفض صور ازدرائها أو تحقير منزلتها أو اعتبارها لغة ميتة انتهى عصرها مما يتنافى مع ثوابت هذه الأمة ومقدساتها.

لقد وصلت اللغة العربية إلى حالة لا يرضي عنها غيور على دينه، لأن هذه اللغة هي لغة لساننا وديننا وكتابنا القرآن الكريم، وتقع المسئولية الكبرى في هذه الحالة غير المرضية التي وصلت إليها لغتنا على المؤسسة التعليمية (مدارس ومعاهد وكليات)، وتشاركها في المسئولية وسائل الإعلام وبخاصة المسموعة والمرئية التي كانت إلى عهد قريب مضى من المراجع الرئيسية في سلامة النطق وجمال التعبير.

إن الجهد الأكبر والأكثر تأثيرا يجب أن تقوم به الدولة من خلال إعادة النظر في مناهج وطرق تدريس اللغة العربية، وإعداد القائمين على تدريسها إعدادا جيدا ومتابعتهم بالتدريب والتقويم المستمرين، والتشديد عليهم بعدم استخدام اللهجة العامية في أثناء التدريس داخل الفصول في المدارس وداخل المدرجات في المعاهد والجامعات.

وإذا كانت هذه مسئولية وزارتي التعليم والتعليم العالي فإن وزارة الإعلام يجب أن تزيد في دورات تدريب المذيعين والمذيعات الخاصة باللغة العربية، وأن تستبعد الذين لا يحسنون النطق في نشرات الأخبار والتعليق على الأنباء، والشيء نفسه يجب أن تقوم به الصحف والمجلات التي كثرت فيها الأخطاء النحوية واللغوية، وتشيع في بعضها العبارات العامية.

إن المسئولية الأولي هي مسئولية المجمع اللغوي وأعضائه من العلماء المحترمين، وهم قادرون – ولا شك – على أداء ما تفرضه هذه المسئولية الثقيلة عليهم من واجبات نحو لغتنا التي تتعرض لأعنف الهجمات.

لكن المسئولية المحفوظة للجميع لا تمنع من الإشارة إلى بعض الملاحظات، وأولاها أن حقنا في تجديد اللغة والإضافة إليها ينبغي أن يكون حقا مشروعا لنا، على أن يتم ذلك بطريقة تخلو من الفوضى التي لا ضابط لها، لأن الفوضى ليست أقل خطرا من الجمود.

ولابد من تأكيد دور الإعلام في النهوض باللغة العربية، ولا يتوقف الأمر على الإعلام المقروء، وإنما يتجاوره – وربما بدرجة أكبر من التأثير – إلى الإعلام المسموع والمرئي، حيث تتجسد اللغة صحة أو

اعتلالا، جمالا أو قبحا، جذبا أو تنفيرا في صوت جميل ووجه حسن وشخصية مؤثرة يمكن أن يكون تأثيرها الإيجابي معادلا لجهود مئات الكُتّاب والمدرسين النابغين، ويمكن أن يكون تأثيرها السلبي مضيعة لجهود عشرات السنين، ومن هنا ينبغي ألا يخلو أي تخطيط من تنبيه وترشيد للدور الحيوي للإعلام بمستوياته المختلفة، وفي هذا الإطار يندرج الدور الخطير للغة الإعلان التي أصبحت تملك تأثيرا خطيرا على كل المستويات بما تحتله من مواقع الهيمنة في منعطفات الطريق أو وجهات المحلات أو قنوات الإذاعة المرئية والمسموعة أو شبكات الاتصال، من خلال هذا كله تمثل لغة الإعلانات سلاحا خطيرا مع اللغة التي تختارها، وضد اللغة التي تعمل على إضعافها، ولنتأمل الأثر المربك الذي تحدثه كلمات مثل (ماتقولشي) بدلا من (لا تقل) أو (حاجة ساقعة) بدلا من (مشروب بارد) أو (علشانك) بدلا من (من أجلك) وغيرها من عشرات الإعلانات التي تتغنى بالكلمات العامية أو الكلمات الأجنبية المكتوبة بحروف عربية، فتَنتَهك حرمة اللغة وصورتها المكتوبة و المسموعة، وتصنع في جدرانها من الشروخ والتصدعات قدرا هائلا يضعف قدرتها على المقاومة والتماسك، فضلا عن التجدد والتقدم.

وإذا كان الإعلام والإعلان إيجابا أو سلبا يمكن أن يقوم بهذا الدور الحيوي في معركة اللغة والحياة، فإن التعليم بعد ذلك هو المسئول الأول عن الضعف اللغوي الذي نعيشه، وعن إمكانية تحقيق النهضة اللغوية التي نطمع إليها، يقول د. أحمد درويش كما نقل عنه أ. رجاء النقاش (أهرام ٢٧ يونيو ٢٠٠٤ ص١٤): إنه لا يكفي أن نقول إن مناهج تعليم اللغة والنحو عندنا في حاجة إلى

إصلاح وتطوير، وإنما ينبغي أن تكون لدينا الشجاعة الكاملة لكي نقول إنها في حاجة إلى تغيير جذري، وإلى إعادة تخطيطها على أساس جديد.

والمسئولية القومية تتطلب الحفاظ على سلامة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وملائمة لحاجات العصر.

ولا تستطيع جهة عربية تحمل مثل هذه المسئولية غير منظومة التعليم والإعلام والثقافة المصرية والعربية ابتداء من الأزهر ومجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق وعمان وغيرها من المجامع والمؤسسات المقروءة والمسموعة والمرئية، ويتحقق هذا بالتنسيق والتكامل وتوزيع الأدوار. وتتحمل المؤسسات التعليمية والاجتماعية مسئولية هبوط المستوى اللغوي للدارسين في مختلف المراحل، لأن هذه المؤسسات أصبحت تنوء بالكم الهائل من الدارسين، ولم تعد تحفل بالكيف والجودة، ثم تقوم بإعطائهم شهادات التخرج دون الاهتمام بما حصلوا عليه، وغدت المدارس والجامعات تخرج لنا كما هائلا من أنصاف المتعلمين والجهلاء، وأخذت الدول العربية على عاتقها مسئولية توظيف هؤلاء الخرجين في مختلف المواقع الوظيفية والقيادية دون النظر إلى كفاءتهم أو مدى الحاجة إليهم، فانعكس ذلك على مستوى العمل في هذه الجهات. وإذا كان تعلم اللغات الأجنبية الحية التي لأصحابها قصب السبق في الاكتشافات العلمية الحديثة للاستفادة بتجاربهم وأبحاثهم ومعرفة نواياهم وخططهم لمواجهتها ووقاية المجتمع العربي من شرورهم وأمانا من مكرهم فإن ذلك لا يجب أن يتم على حساب اللغة الأم، لأن عدم استعمال اللغة العربية في كثير من ميادين العلم

الحديثة كالطب والهندسة والعلوم الاجتماعية يؤدي إلى ابتعاد العلماء والمثقفين عنها.

والغريب في الأمر أن نرى البعض من المبهورين بالحضارة الغربية يطالبون بترك الإعراب وتسكين أواخر الكلمات العربية تسكينا لازما في جميع الأحوال شأنها في ذلك شأن الكلمات الأوربية، وبهذا يأمن الناس الوقوع في الخطأ بحجة أن هذا الأمر ييسر للناشئة تعلم اللغة التي يقف النحو حائلا بينهم وبينها ، وهذا ادّعاء باطل، لأن الإعراب في اللغة العربية أهم ما يميزها عن اللغات الأخرى.

وإذا أردنا أن ننقذ العربية من الضياع فإنه يجب على أجهزة الإعلام أن تضع مقاييس دقيقة لاختيار العاملين بها، فإذا كان معلم اللغة العربية يتحمل مسئولية تعليم أعداد محدودة من التلاميذ، فإن رجال الإعلام مطالبون بتعليم الجماهير العريضة في كل مكان، ومن ثم فإنه يجب أن يكونوا في مستوى علمي رفيع وعلى درجة عالية من الذكاء والثقافة، ولديهم القدرة العلمية واللغوية لمتابعة أحدث الاتجاهات في تطور الحياة الإنسانية.

وعلى أجهزة الإعلام أن تهتم بتدريب العاملين بها على فن الإلقاء للعمل على ضبط مخارج الحروف والكلمات، كما أن عليها أن تلتزم بقواعد وحدود اللغة في تأليف الكلام ونظمه، حتى تأتي النصوص الإعلامية معدّة على الوجه المعقول، ومنظومة بصورة تخلو من التناقض والشذوذ، وهذا يفرض على الكتّاب والمعدين التمكن من قواعد اللغة، والسيطرة على معانيها، والقدرة على نظم الكلام، وأن تبتعد قنوات الاتصال المختلفة عن استخدام الألفاظ

المبتذلة، والإسفاف في اختيار الكلمات الهابطة لعرض المعاني، حتى يمكن الارتقاء بمستوى الجماهير ورفع مستوياتهم اللغوية وملكاتهم الفكرية.

هل يمكن إنكار أن لغتنا المعاشة هي نتاج أفعالنا بصورة تفوق كونها نتاج أفعالنا وضمائرها وقواعد الجر والنصب فيها؟ لقد كانت لغتنا علميه تصك من مفرداتها أروع المصطلحات بالنحت والاشتقاق والترجمة والتعريب، وتأخذ عنها شعوب الثقافات المهيمنة في عالم اليوم.

هل خرجت لغتنا طوعا عن علميتها، أم أن أهلها هم الذين أخرجوها والذين يقع عليهم وحدهم واجب إعادتها وتطويرها وازدهارها من جديد؟

لابد من الفصل بين وظيفة اللغة وتوظيفنا لها عند الحكم على صلاحيتها، وهو الحكم الذي يؤدي بالبعض إلى المطالبة بافتراض لغات أخرى للتعليم في مدارسنا وكأننا كما يقول د. أحمد شوقي (أهرام ١٩٩٣/٤/٢٣) لا نكتفي بالديون الاقتصادية ونصر على إضافة (ديون لغوية) لا تستطيع أي ثقافة من الثقافات أن تدفع عائدها أو أن ترد أصل هذه الديون.

ولا شك أن الارتباط وثيق بين العربية والإسلام، لأنها اللغة التي كرمها الله بالكتاب المحفوظ، مما يجعل مقولة الإمام محمد عبده الشهيرة عن عدم الاحتجاج على الإسلام بالمسلمين تتداعي بشكل من الأشكال بالنسبة للاحتجاج على لغتنا الجميلة بالحال التي وصلت إليها كفاءة توظيفها على أيدي أبنائها.

ولا شك أن وسائل الإعلام وهي الصحافة والإذاعة والتليفزيون هي المسئولة عن بقاء اللغة العربية حية ومتطورة، لأننا لا نستمع إلى هذه اللغة حية ومنطوقة إلا على ألسنة العاملين في الإذاعة والتليفزيون وضيوفهم من المتحدثين إذا التزموا الحديث بها، والمجتمع لا ينفر لهؤلاء إذا لم يجيدوا الحديث بلغة صحيحة، وإذا لم يحرصوا على قدر من الأناقة اللغوية كبعض حرصهم على أناقة الزي والمظهر.

(احتدام الصراع حول سيبويه)

سيبويه أشهر النحاة العرب، وأول من بسَّط علم النحو، ووضع فيه كتابا بعنوان (الكتاب). كان سيبويه شابا فارسيا لم يتعد الأربعين من عمره، واسمه الحقيقي (عمرو ابن عثمان)، أما سيبويه فهو لقبه الذي اشتهر به، وكنيته (أبو بشر)، ولد في عام ١٤٠هـ وتوفي عام ١٨٠ هـ بمدينة البيضاء بفارس، وكانت اللغة الفارسية لغته الأم، وثم وفد إلى البصرة بعد سن الرابعة عشرة، وفي ربوع البصرة – حاضرة العلم آنذاك – تلقى الفقه والحديث، وتتلمذ على يد العديد من الشيوخ والعلماء من أهمهم الخليل بن أحمد واضع علم العروض، وأول من استنبط مسائل النحو، وضبط اللغة، وابتكر المعجمات، ووضع للخط العربي شكله المستعمل حتى اليوم.

وقد ولد الخليل ونشأ بالبصرة، وأخذ النحو والقراءة والحديث عن أئمة عصره، ثم رحل إلى البادية فسمع الفصيح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة، وأكثر ما كتبه سيبويه منقول عن الخليل بن أحمد.

وقد مات سيبويه في ريعان شبابه بسبب تلك الخلافات السفسطائية التي كانت تندلع بين النجاة حول مسائل النحو والصرف وما زالت حتى اليوم.

وكان النحاة في ذلك الزمان ينقسمون إلى فريقين: أحدهما في البصرة، والآخر في الكوفة، وكان الفريقان يختلفان في العديد من القواعد النحوية، وكان لكل منهما مؤيدون ومناصرون.

وقد مات سيبويه حزنا وكمدا بعد أن استُدرج إلى مناظرة أقيمت بالبصرة بينه كزعيم للبصريين، وبين الكسائي زعيم نحاة الكوفة ومعلم الأمين بن هارون الرشيد، واحتكموا لبعض الأعراب الذين انتصروا للكسائي ضد سيبويه، ولكن سيبويه لم يقتنع برأي الأعراب، وشعر – كما زعم تلاميذه – أن الكسائي تآمر عليه مع جماعة الأعراب ورشاهم حتى ينصروه عليه، فغضب سيبويه وهاجر من العراق إلى مسقط رأسه في فارس، وفي الطريق مرض وتوفي كمدا وهو في ريعان الشباب حيث لم يتجاوز عمره الأربعين.

وقد ترك سيبويه كتابا في علم النحو والصرف والأصوات ضمنه أفكاره وآراء معاصريه، ولكنه لم يضع له عنوانا ولا مقدمة ولا خاتمة، ولم يوضح المنهج الذي سلكه في ترتيبه، ولكن أحد تلاميذه وهو الأخفش أخرجه بعد وفاته، وأطلق عليه العلماء اسم (الكتاب)، وتجاوز البعض فوصفه بقرآن النحو، وكل النحاة الذين جاءوا بعده اغترفوا منه، وكل كتب النحو التي صدرت بعده دارت في فلكه، وتناوله العديد من المؤلفين فصوبوا بعض مسائله وخطئوا البعض الآخر، ومنهم المبرد (أبو العباس) الذي تتلمذ على يد الخليل بن أحمد في البصرة مع سيبويه – والمبرد المتوفي

في مصر سنة ٣٣٢هـ وكان نحويا مصريا، ومن بين كتبه (الانتصار لسيبويه) رد فيه على من خطأ سيبويه، وابن هشام الذي ولد بالقاهرة عام ٧٠٨هـ الذي قال عنه ابن خلدون: إنه أنحى من سيبويه، أي أغزر علما في مادة النحو من سيبويه، وأخيرا ابن مالك صاحب الألفية المشهورة الذي ولد بالأندلس عام ٦٠٠هـ وتوفي في دمشق عام ٦٧٢هـ ، وقد وصفه بعض معاصريه بأنه كان بحرا لا يشق عبابه في العلوم خاصة في النحو، ومازال كتابه (الخلاصة) المشهور بين الناس بالألفية يدرس في الجامعات حتى الآن. (إقبال بركة أهرام ٢٠٠٤/٨/٢٥ ص١٠).

وقد استمر الصراع حول سيبويه حتى عصرنا هذا، فمن العلماء من يقول: يحيا النحو ويحيا سيبويه، ومنهم من يقول: يحيا النحو ويسقط سيبويه، فالخلاف بينهم في سيبويه، أما النحو فلا خلاف بينهم في أنه (يحيا).

ولعل أبرز من أثار زوبعة حول سيبويه في هذا العصر هو الأستاذ (شريف الشوباشي) في كتابه (لتحيا اللغة العربية ويسقط سيبويه) – إصدار هيئة الكتاب – حيث يقول: إنه إذا أعملنا عقولنا لوجدنا أن هناك احتمالين من الصعب أن يكون لهما ثالث؛ فإما أن يكون الحوار مع موسى قد جرى باللغة الوحيدة التي كان يفهمها وهي المصرية القديمة، أو أن الله قد أوحى إليه المعاني في دون اللجوء إلى لغة معينة، وذلك أن موسى تربي في مصر وعاش بها قبل ١٧ قرنا من مجيء محمد خاتم الأنبياء، في الوقت الذي يجمع فيه علماء اللغة العربية على أن العربية لم تتخذ ثوبها الذي نزل به القرآن إلا قبل ١٥٠ سنة – على الأكثر– من

بداية الدعوة الإسلامية، وعلى هذا فإن موسى تحدث بلغته التي يعرفها وهي المصرية القديمة، وذلك لأن الله تحدث إلى موسى بأسلوب يفهمه ويدرك معانيه، ولو تحدث إليه بالعربية لما فهم موسى وما استطاع أن يطيع أوامر ربه.

ثم يمضي شريف الشوباشي خطوة أبعد ويقول – كما ذكر أ. صلاح منتصر في عموده اليومي (مجرد رأي) بأهرام ٣ أغسطس ٢٠٠٤ ص ١١: إنه وقد تأكد أن اللغة العربية تنتمي إلى العصر الجاهلي فإن الله قد تخيرها لتنزيل رسالته كي يفهمها القوم، وقد سما بها الله إلى أعلى مراتب الإعجاز، إلا أنها – أساسا – كلغة من صنع الإنسان، وليست هابطة من السماء، وهو ما يجعلني أطالب – وهذا هو الهدف من الكتاب – بإعادة النظر في القواعد الأساسية للغة العربية لتصبح أداة فعالة لتفجير طاقات العقل العربي، فاللغة العربية – هكذا يؤكد الشوباشي – هي اللغة الوحيدة في العالم اليوم التي لم تتغير قواعدها الأساسية منذ ١٥٠٠ سنة، وهذا ليس دليلا على رسوخ هذه اللغة ورصانتها، وإنما على جمود وتحجر ينعكس سلبا على العقل العربي، وهي اللغة التي لا يجيدها معظم الذين يتحدثون بها، فشبابنا يكتبون بلغة ركيكة، ويقعون في أخطاء لغوية فادحة، وحتى كبار المسئولين من النادر ألا يخطئ أحدهم.

والإنسان العربي يعيش مع اللغة حالة (شيزوفرانيا) يتحدث بلغة في منزله وعمله وفي الشارع، ويستخدم لغة أخرى في الكتابة أو قراءة الصحف والاستماع إلى نشرات الأخبار، وهذا أمر غير موجود في اللغات الأخرى الإنجليزية أو الفرنسية، ولهذا فإن

اللغة العربية في حاجة إلى عمليات عاجلة للعودة بها إلى حياتها الأولى، والحفاظ على العربية يستوجب العمل على تطويرها دون إبطاء حتى تواكب متطلبات العصر في الصياغة والمفردات وقواعد النحو والصرف.

ومن هذا المنطلق يذهب الشوباشي إلى ضرورة تحرير اللغة من جوامد النحو والصرف، ويطالب بإلغاء المثنى ونون النسوة وإلغاء التشكيل.

وقد أثار هذا معركة محتومة بين من يؤيدون آراء الشوباشي وبين من يعارضونها، وأعرض لهذا ما كتبه أ. صلاح منتصر في عموده اليومي (مجرد رأي) – في أهرام ٥ أغسطس ٢٠٠٤ ص١١– حيث يقول: يدافع الزميل الأستاذ شريف الشوباشي دفاعا مريرا عن مطلب تطوير اللغة العربية، ويقترح إلغاء التشكيل والمثنى ونون النسوة، وتوحيد التعامل مع الأرقام، وتثبيت وضع المفعول به حتى لا يقع الخلط، وغير ذلك من الاقتراحات التي ضمتها بحثه عن اللغة العربية، ومع ذلك فإن أول ملاحظة على كتابه أنه التزم فيه من أول كلمة إلى آخر كلمة بكل القواعد والأسس الصعبة التي يطالب بتغيرها، وقد كان من المنتظر أن يقدم ولو فصلا واحد، وليكن الفصل الأخير مستخدما الأسلوب الذي يقترحه لتطوير اللغة.

يقول أ. صلاح منتصر: كنت أتمنى أن يجرب كتابة بضع صفحات بنفس القواعد الجديدة التي يقترحها ليكتشف أنه سيدخل متاهة لا يعرف الخروج منها.

وربما كان أخطر ما يطالب به الشوباشي إلغاء التشكيل، وهو ما يعني إلغاء التعريف بمعنى الكلمة، وأهم من ذلك كله إنهاء الشعر والشعراء، لأنه بدون تشكيل لا تكون هناك موسيقي للغة العربية ولا بحور ولا وزن ولا جمال ولا حياة، وبالتالي لا شعر ولا غناء، فتصبح اللغة أوراقا ذابلة مثل ملايين الأوراق التي تلقي بها رياح الخريف من أشجارها إلى عرض الطريق فتطؤها الأقدام دون أن نستشعر لها روحا أو جمالا.

ثم غير ذلك من قال إن اللغة العربية لم تتطور على امتداد السنين؟ من قال إن الأسلوب الذي كان يستخدم قديما ويقوم على الطباق والجناس حتى في الكلام العادي هو نفسه المستخدم اليوم؟ صحيح أنه تطور من حيث الأسلوب وهذا هو المطلوب، أما تطوير القواعد فهو هدم لأساس المبني، ولا أظن أن الزميل شريف الشوباشي يريد هدم الأساس، بل على العكس فإنه – برغم ما يبدو للبعض – إلا أنه – كما يشير كتابه – فاهم وقريب جدا من اللغة العربية، وهو في دعواه ليس سيئ النية، بل إنه عاشق كبير للغة العربية، ويتمنى رؤيتها لغة عالمية لها مكانتها بين اللغات الأخرى التي يغار من انتشارها، ولنتأمل هذه السطور التي كتبها هو نفسه في كتابه (ص ٣٩) والتي يقول فيها: عندما بزغ نور الحضارة الإسلامية أصبحت العربية هي لغة العلم والمعرفة والتفوق في كل المجالات، وكان علماء العالم يضطرون إلى الإلمام بالعربية ليكونوا على معرفة بآخر ما وصل إليه العلم الحديث في ذلك العصر، نظرا لأن كل الاكتشافات والبحوث العلمية القيمة كانت تكتب بالعربية.

وفي رأيي أن هذا ليس تناقضا في التفكير ولكنه تغلب على الخيال، فمهما حاول الإنسان قلب الحقائق فإنه لا يستطيع أن يستمر في ذلك .

والحق أنه ليس العيب في اللغة، ولكنه في تخلفنا وإقبالنا على تعلم اللغات الأجنبية، ليس لسهولتها، أو حبا فيها، وإنما لأنها الطريق الذي يعرفنا بوسائل التقدم.

ومحدودية انتشار اللغة ليس بسبب صعوبتها، وإنما لافتقاد من يتعلمها معرفة آخر ما وصل إليه العلم الحديث.

(فليسقط سيبويه)؛ كتاب للأستاذ شريف الشوباشي يذهب فيه إلى ضرورة تحرير اللغة العربية من جوامد النحو والصرف الخاصة بها .

وفي الرد على هذا يقول قداسة البابا شنودة: أنا من رأيي أن نتمسك باللغة العربية بكل قواعدها في النحو والصرف، وإلا لا تصبح لغة عربية، وتتحول من لغة إلى لغو، وهذا أمر يسئ إلى اللغة بشكل عام، وليست اللغة العربية فحسب، فلا نستطيع – مثلا – أن نلغي قواعد تصريف اللغات الفرنسية أو الإنجليزية، فالتحرر من قواعد اللغة إساءة لها، وهذا أمر يسبقه أمر آخر وهو تحرر الشعر من أوزانه وقوافيه، ويقول البابا: إنني تعلمت الشعر على كتاب اسمه (أهدى سبيل إلى علمي الخليل) والمقصود بعلمي الخليل هما : العروض والقافية؛ فالعروض هي الأوزان والتفاعيل، والقافية هي نهاية الكلام.

لقد أثار كتاب شريف الشوباشي الذي حمل عنوان (لتحيا اللغة العربية . ليسقط سيبويه) أكبر معركة ثقافية، ومهما تعددت الآراء أو اختلفت وجهات النظر فإن المعركة أثبتت أن محبي اللغة العربية أكثر بكثير من الكارهين لها، ويقول أ. رجاء النقاش (رحمه الله) – في أهرام ٨ أغسطس ٢٠٠٤ ص ١٤ –: «إن عشاقها والمفتونين بها هم بلا حصر ولا عدد، ولست أبدا مع الذين يدينون شريف الشوباشي ويتهمونه (بالفرنكوفونية) أي التعصب للغة الفرنسية ضد غيرها؛ فكتاب الشوباشي هو صرخة من أجل الإصلاح صادرة عن نية ثقافية حسنة، والاعتراض على هذه الصرخة أو النقد لا يجردها مما فيها من صدق وأمانة».

وقد وردت تعليقات على كتاب الشوباشي أوردها أ. رجاء النقاش في مقاله السابق؛ منها: رسالة الأديب العالم د. مصطفي أمين الرفاعي أستاذ جراحة المسالك البولية، بكلية الطب – جامعة الإسكندرية يقول فيها: «أرى أن أ. شريف الشوباشي في كتابه عن اللغة العربية قد جانب التوفيق فيما دعا إليه من إصلاحات لغوية، فكيف يطالب بإلغاء المثنى ونون النسوة، وهما من العلامات المميزة للغة العربية، ولا أوافق على أن الدعوي ليس فيها خطر على اللغة العربية، وإلا فإن الطالب المبتدئ عندما يقرأ القرآن يتعرض لارتباك كبير، فكيف يكتب ويقرأ بأسلوب لغوي، ثم يقرأ القرآن بأسلوب مختلف، إنه حينئذ لن يفهم معاني القرآن أو ألفاظه.

ومن المعلوم أن مؤلفات ابن سينا والرازي والزهراوي وغيرهم هي التي طورت العلوم الطبية في أوربا، وكتاب القانون في الطب لابن سينا ظل موضوعا للدراسة كما هو في جامعات أوربا لمدة

سبعة قرون، ولم تكن اللغة العربية عائقا لانتشار هذا الكتاب، كما لم تكن عائقا لنشر الثقافة العلمية ونقل المعلومات.

وهناك رسالة أخرى لعالم جليل يقول فيها: «تابعت عرضكم لكتاب الشوباشي وكيل أول وزارة الثقافة المصرية، وكم آلمني ما فيه من سقطات وسوء استنتاج وعدم ربط للنتائج بالمقدمات، مما أدى إلى الوقوع في أخطاء جعلة يُسئ الهدف رغم اجتهاده، وقادته خطاه إلى رمي العربية بما ليس فيها، نعم هناك مشكلة في تدريس اللغة العربية في مدارسنا ومعاهدنا، ولكن العامية لم تنتصر على الفصحى أو تزيحها من العرش، وفي اللغة الفرنسية والإنجليزية لغة رسمية أدبية، ولغة الشارع، فهل ماتت اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو غيرها من اللغات المعاصرة بحجة (الشيزوفرينيا) اللغوية ؟ ما من لغة إلا وتنقسم إلى أقسام ثلاثة: القديمة والحديثة والدارجة، ويترتب على هذا التقسيم اللغوي تقسيم آخر للأدب، لأن اللغة وعاء الأدب، ثم يهيب هذا الأستاذ بمن يقومون بتدريس العربية أن ينطقوا بها في دروسهم.

وهناك أبيات للشاعر اللبناني (حليم دموس) في الإشادة باللغة العربية فيها:

لا تلمني في هواها ... ليس يرضيني سواها
فبها الأم تفنت ... وبها الوالد تاها
لغة الأجداد فاحْنُوا ... عند ذكراها الجباها
نزلت في كل نفس ... وتمشت في دماها
لست وحدي أفتديها ... كلنا اليوم قداها

ويذكر أنه منذ عدة سنوات ألقى د. يحيي الرخاوي في مؤتمر دولي للطب النفسي عقد في الأردن بحثا عنوانه (لغتنا العربية والطب النفسي)، واختار لفظة (وجدان) ليبين أنها أبلغ وأشمل من ألفاظ إنجليزية متعددة تعبر عن معناها مثل: **(Emotion, Feeling)**، ثم يربط بين التقدم العلمي والتقدم اللغوي، فبدون تقدم علمي لن يتحقق تقدم لغوي، لأن اللغة والفكر صنوان لا ينفصلان.

وهناك بعض الكتاب يشيدون بمن ينتقدون اللغة العربية لصعوبتها، ويرون أن في هذا تطوير للغة العربية، لأن المفروض أن تكون هذه اللغة سهلة واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد.

ومن هنا يبررون دعوة شريف الشوباشي إلى إلغاء المثنى ونون النسوة، ويرون أن هذه دعوة إلى الإصلاحات اللغوية التي ليس فيها خطر على هذه اللغة، فالشوباشي يرى أنه لا ضرورة للمثنى، ويمكن الاكتفاء بالمفرد والجمع فقط، لأن المثنى هو نوع من الجمع، وكذلك يدعو الشوباشي إلى إلغاء نون النسوة التي لا وجود لها في لغات كثيرة حية مثل الإنجليزية والفرنسية، فجمع المؤنث وجمع المذكر فيها واحد، ويمكننا أن نقول: (الرجال خرجوا)، و (النساء خرجوا) بدلا من خرجن، وبذلك نوحد قاعدة الجمع ونتخلص من زيادة في اللغة لا مبرر لها. ولكن ما موقف الشوباشي ومن وافق على كلامه وامتدح رأيه من القرآن الكريم وماذا نفعل فيما ورد فيه من المثنى ونون النسوة ؟ هل نلغي ذلك أم نعترض على كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ إن القول بأن هذا يعد من تطوير اللغة هو كمن يضع السم في العسل.

ويقول أ. رجاء النقاش إن كتاب الشوباشي يمكن أن يكون دليلا ضد صاحبه، فقد كتبه بلغة عربية سليمة عذبة خالية من الأخطاء، فإذا كانت اللغة العربية يمكن كتابتها بكل هذه السهولة والوضوح والجمال البسيط الممتع المثير للإعجاب، فلماذا يثور مؤلّف الكتاب على لغة تملك كل هذه الإمكانات؟ إن الشوباشي بكتابه الجميل يرد على نفسه بنفسه ربما دون أن يدري، والكاتب بلغته العربية السهلة الجميلة هو دليل على أن الصعوبات ليست قائمة في اللغة نفسها بقدر ما هي قائمة فيمن يستخدمونها.

على أن أصحاب المواهب الأدبية ليسوا من مدرسة واحدة؛ فهناك من يرون أن المثل الأعلى للجمال اللغوي هو الأدب العربي القديم، ولذلك فهم يحرصون على اختيار الألفاظ الفصيحة حتى ولو كانت قديمة مهجورة غير مألوفة، وهناك من يرفضون ذلك ويكتبون بلغة عصرية سهلة مألوفة، والأدب العربي في القرن العشرين قدّم لنا هاتين المدرستين؛ فالمدرسة الأولى وهي مدرسة الفصاحة والحرص على استخدام اللغة القديمة بألفاظها الصعبة التي قد لا يفهمها المعاصرون إلا بالرجوع إلى القواميس، ويقف على رأس هذه المدرسة عميدها الأديب العربي الكبير مصطفي صادق الرافعي، وهو كاتب عربي نابغ يكتب وكأنه ينحت في صخر، وكانت لغته أقرب إلى لغة العصر العباسي، ولذلك فإن قراءته ليست سهلة ولا ممتعة إلا لمن يدرب نفسه عليها، ويكون صاحب ثقافة لغوية عالية، ويمكن أن نقول إن كتابة الرافعي الآن أصبحت جزءا من تاريخ الأدب ولم يعد لها وجود، وفي المقابل وفي

نفس عصر الرافعي، أي في النصف الأول من القرن العشرين ظهرت المدرسة الأخرى التي تعتني باستخدام اللغة السهلة البسيطة، والتي يؤمن أصحابها بأن الجمال إنما ينبع من المشاعر والأفكار التي تقف وراء الألفاظ، ومن رواد هذه المدرسة توفيق الحكيم و أحمد أمين وطه حسين وأشباههم، وقد وصف الشاعر العربي إحدى المغنيات بأنها تتغنى كأنها لا تتغنى، بالضبط ما يمكن أن نقوله على كتاب اللغة السهلة بأنهم يكتبون كأنهم لا يكتبون.

وأنا هنا أضيف مدرسة ثالثة، وهي التي يعني أصحابها بعمق الأفكار والغوص وراء المعاني، فتري الألفاظ سهلة والأسلوب سلسلا ولكن يصعب عليك أن تدرك المعنى إلا بإعمال الفكر وإطالة النظر، وهؤلاء لا يستمتع بقراءتهم إلا ذوو النظر الثاقب والفكر المستنير وعلى رأس هذه المدرسة يقف كاتبنا القدير عباس محمود العقاد الذي كان له صالون يُسمى (صالون العقاد) يجتمع فيه الأدباء والمفكرون من كل حدب وصوب يناقشون الآراء السائدة والأفكار المستنيرة، وقد تخرج في هذا الصالون أشبال أصبح لهم وزنهم في عالم الفكر والأدب، وعلى رأسهم أديبنا الكبير أنيس منصور ويقول أحد الكتاب في (عمود مواقف لأنيس منصور بأهرام ٢٠٠٤/٨/٣٠): لقد أصابني حزن شديد يوم مشاهدة برنامج يطالب ضيوفه بإلغاء المثنى ونون النسوة، مدعين أن هذه القواعد العتيقة كفيلة بخنق اللغة العربية. تري هلي يمكن أن تموت لغة اختارها الله – سبحانه – لتكون محلا لنص المعجزة الإلهية الكبرى وهي القرآن الكريم.

وفي عمود (مجرد رأي لصلاح منتصر ٢١سبتمبر ٢٠٠٤ ص ١١) يقول أحد الكتاب: إن التشكيل الذي يشكو منه الشوباشي في اللغة العربية يعتبر خاصية من الجمال تنفرد بها اللغة العربية للتعبير عن المقصود بشكل دقيق دون أن يقع القارئ في حيرة من أمره لتمييز الفاعل والمفعول أو الفعل المبني للمجهول، بالإضافة إلى أن هناك بعض الأفعال التي يلزم تشكيلها في حالات المؤنث.

ويقول كاتب آخر (في أهرام ٤ يوليو ٢٠٠٤ ص ١٢): أرجو أن يغير أ. شريف الشوباشي عنوان كتابه الجديد فيكون: (لتحيا اللغة العربية وليحيا سيبويه)، فسيبويه هذا هو الفارس الذي ألف كتابا صار علما بين النحويين، فإذا قيل (الكتاب) لم ينصرف المقصود إلا إلى كتابه، وسيبويه يستحق الإجلال والتقدير، وليس الإهانة والتحقير، إنني لا أرى الصواب في إلغاء المثنى ونون النسوة، وفي القرآن الكريم النموذج الأمثل لاستخدامها، وعدم وجودهما في لغات كثيرة حية لا يلزم لغة (الضاد) أن تهملهما، والإقبال على قراءة القرآن وتدبره يجعل الألفاظ سهلة على اللسان، واضحة في الأذهان، وقارئ القرآن سيجد في كتب مصطفى صادق الرافعي تأثرا بأسلوب القرآن الكريم، فإذا قرأها وجد السهولة والمتعة.

ولكبير أساتذة اللغة العربية والنقد الأدبي بآداب عين شمس أ. د. محمد عبد المطلب – مقال بعنوان (تحيا اللغة العربية ويحيا سيبويه) نشر بجريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٤/٨/٢٧ ص ٣٤، ولأن هذا المقال في غاية المتعة والجمال، فربما لا أستطيع اختصاره أو تلخيصه، إلا أن يكون ذلك في أضيق الحدود؛ يقول د. محمد عبد المطلب: أصدر أ. شريف الشوباشي كتابه الأخير بعنوان

مثير للغضب كتبت جملته الأولى بحروف صغيرة: (لتحيا اللغة العربية)، وجملته الثانية بحروف كبيرة: (يسقط سيبويه).

ولقد أصاب الشوباشي عندما برر تأليفه للكتاب بخوفه على اللغة العربية من الضياع، وأن عدم تيسيرها قد يؤدي إلى القضاء عليها، وقد جانبه الصواب فيما عدا ذلك، وهو ما يتمثل في المحاور الآتية:

١. مناقشته دون سند علمي لقضية استغرقت منه أكثر من أربعين صفحة وهي افتراض أن اللغة العربية لغة مقدسة، ولكن ليس معني أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية أنها لغة مقدسة، فالقداسة للقرآن لا للغة، لأن اللغة سابقة على الإسلام ونزول القرآن، ومن أجل فكرته عن قداسة اللغة راح يبحث عن أصل نشأتها هل كان (توقيفا من الله) أو (بالمواضعة).

٢. وقد سيطر على معظم الكتاب أن اللغة العربية لم تتطور منذ نزول القرآن، وبالتالي قادها ذلك إلى التحجر، والحق أن أي مبتدئ في الدرس اللغوي والأدبي يدرك أن عربيه اليوم قد انشطرت إلى (فصحي وفصيحة)، وأن الفصيحة هي التي سادت في الصحافة والإعلام والإنتاج الأدبي، ومعني هذا أن العربية تطورت لا في معاني الكلمات فحسب كما يرى الشوباشي وإنما في الأبنية والتراكيب، وليس ذلك أمرا طارئا على مسيرة العربية، وإنما كان مرافقا لها منذ بداية المسيرة، حتى إن واحدا من أعظم اللغويين الأوائل هو (أبوعمرو بن العلاء ١٥٤ هـ) لاحظ هذا التطور عندما قال: (اللسان الذي نزل به القرآن وتكلمت به العرب على عهد النبي (ص) عربية أخرى

غير كلامنا هذا)، بل إن كتاب الشوباشي ذاته أكبر دليل على تطور العربية، فقد استخدم كثيرا من التجاوزات اللغوية مثل التوسع في الاشتقاق، وعدم الالتزام الدقيق بكسر همزة (إن) وفتحها، والجمع بين أدوات لا يصح الجمع بينهما مثل: (قد والنفي)، وصياغة جمل استثنائية غير مألوفة، وكلها من الأمور التي أصبحت شائعة في عربية اليوم، اعتمادا على أن (الجائز) في اللغة أكثر من الواجب، ومن أخطر ما ذهب إليه المؤلف أنه رفض التطور ودعا إلى التطوير، وكأن اللغة تتطور بالقوانين والأحكام والإجراءات الرسمية، مع أن المعروف أن اللغات كلها تتطور تبعا للواقع الحضاري للمجتمع، ثم تأتي المؤسسات اللغوية لترصد هذا التطور وتضعه في إطاره العلمي الصحيح.

ومن ناحية أخرى خلط الكتاب خلطا فاحشا بين اللغة التواصلية التي تعتمد الفهم والإفهام واللغة الإبداعية التي تهدف إلى التأثير والإمتاع، ومن ثم ذهب يطبق قوانين واجراءات اللغة الإبداعية على اللغة التواصلية فظلم المستويين معا، فاللغة التواصلية تكون فيها اللغة أداة للفهم والإفهام، أما اللغة الإبداعية فإن اللغة فيها تكون غاية في ذاتها، ومن ثم يرجع قوله بتحجر اللغة لعجزه عن فهم بعض النماذج الشعرية، وقد ترتب على هذا الخلط الهجوم على البلاغة العربية وما فيها من ظواهر تحسينية، وهي ظواهر يعتبرها النُقاد جزءا مهما من جماليات النص الأدبي. ويصل ظلم اللغة إلى درجة أن تتهم بما ليس فيها وهو أنها تفرض البدء بالجملة الفعلية برغم أن اللغات الراقية – من وجهة نظر المؤلّف – تؤثر البدء بالجملة الاسمية، صحيح أن العربية تميل إلى الجملة

الفعلية، لكن ذلك ليس قانونا ولا قاعدة، ونظرة سريعة في القرآن الكريم والخطاب الشعري القديم والحديث تنفي ذلك تماما، ثم إننا لسنا مطالبين بتحكيم قواعد اللغات الأجنبية في لغتنا ومن العجيب أن يقول المؤلّف إن ضبط الكلمة العربية بالشكل هو الذي يحدد معناها، ولكن الصحيح أن الذي يحدد المعنى هو موقع الكلمة في السياق.

أما ضعف العربية اليوم وشيوع اللحن على ألسنة المتكلمين فهذا ما لا يمكن إنكاره، ولكن المؤلف نسي أو تناسى مبررات هذا الضعف، وهو محاولات ضرب العربية من المستعمر الغربي منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، وذلك بالإضافة إلى رداءة وضعف مناهج تدريس العربية (النحو خاصة)، ورداءة النماذج المختارة، حتى تحولت اللغة العربية إلى لغة ثانية، وثالثة في بعض الأحيان، وقد خلص المؤلف من كل ذلك إلى دعوة مباشرة تقوم على ركيزتين، الأولى: التقريب بين الفصحى والعامية، وهي دعوة قديمة، وربما يكون التطور قد حقق بعض هذا التقريب، والثانية: تطوير القواعد النحوية وتخليصها من بعض التعقيدات التي يراها لا تتوافق مع السائد في اللغات الأجنبية، ومن ذلك:

١. إلغاء قاعدة المخالفة بين العدد والمعدود في التذكير والتأنيث.

٢. إلغاء المثنى.

٣. إلغاء نون النسوة.

٤. لا ضرورة لنصب المفعول به (أي إلغاء الإعراب).

ما سبق كان توافقا مع (يحيا سيبويه)، أما (يسقط سيبويه) فالكثيرون يضمون أصواتهم إلى صوت الشوباشي في القول بصعوبة اللغة العربية وتعقيدها وتنفير الشباب منها.

ومن هؤلاء يقول أحدهم: إن القارئ العادي لا يلاحظ الأخطاء الإملائية والنحوية في الصحف التي يقرؤها، والمصيبة أكبر الآن، والمصيبة أكبر الآن، إن كثيرين يسهل عليهم أن يكتبوا بالإنجليزية، والسبب في ذلك أننا في مصر وفي خارجها درسنا اللغة بطريقة منفرة، بطريقة خشنة تجعلنا نكره لغتنا الأم.

ويقول آخر – من خارج مصر – إن لديه أولاداً صغاراً أراد أن يعلمهم اللغة العربية، فطلب من صديق أن يبعث له ببعض الكتب، وبمنتهى الصراحة لم يجد أسوأ من هذه الكتب ورقا وحبرا وصورا ولغة، إنها تسد النفس، وتصد أي إنسان عنها مهما كان عاشقا للعربية وعابدا لوطنه.

وهناك آخر يقول: كلما قرأت ازددت حزنا وحسرة على شباب مصر ولغة مصر التي هي لغة العرب ولغة القرآن.

ورسالة من إحدى الدول العربية يقول فيها كاتبها: رغم معارضتي الشديدة لما قاله الشوباشي إلا أننا يجب أن نقدم له الشكر، لأنه ألقى حجرا ضخما في المياه الراكدة، مما أثارنا وجعلنا نتنبه لقضية نشر القواعد الصحيحة للغة العربية، والبحث عن طرق سهلة تيسر فهم تلك القواعد.